مارك دوغان

كريستوف لابي

الإنسان العاري

الدكتاتورية الخفية للرقمية

ترجمة

سعيد بنكراد





الإنسان العاري

الدكتاتورية الخفية للرقمية

الكتاب : الإنسان العاري الدكتاتورية الخفية للرقمية
المؤلف : مارك دوغان / كريستوف لابي
ترجمة : سعيد بنگراد
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 192
القياس : 14.5 × 21.5
الإيداع القانوني : 2019MO3115
الترقيم الدولي : 978-9954-705-65-0

الناشر: **المركز الثقافي للكتاب**

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء - شارع المقدسي - بناء بليبسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

هذه ترجمة لكتاب

Marc Dugain Christophe Labbé

L'homme nu

Editions Plon, Paris, France 2016

مارك دوغان
كريستوف لابي

الإنسان العاري

الدكتاتورية الخفية للرقمية

ترجمة
سعيد بنگراد



المحتويات



مقدمة المترجم

سعيد بنكراد

صدر الكتاب الذي نقدم ترجمته لقراء العربية في نهاية ماي 2016. وقد تزامن صدوره مع صدور كتاب آخر عنوانه "أنا أوسيلفي إذن أنا موجود، تحولات الأنا في العصر الافتراضي"[1]، وهو من تأليف محللة نفسانية فرنسية تُدعى إلزا غودار، وقد صدر الكتابان في الشهر ذاته والسنة ذاتها وفي المدينة ذاتها، باريس. وكلاهما يشير إلى وجود خطر يهدد البشرية في مناطقها الأكثر أصالة: الذاكرة واللغة. فلم يعد الافتراضي لعبة عارضة في حياة الناس، بل تحول إلى وجود حقيقي له "هوياته" و"أنواته" وضمائره ومساحاته وفضاؤه وزمانه.

يتناول الكتابان معا القضايا نفسها، أي كل ما يتعلق بالآثار الكارثية التي خلفتها الثورة الرقمية على الشرط الإنساني، ما يعود إلى علاقة الفرد بالزمان وبالمكان، وعلاقته مع نفسه ومع الآخرين، بل امتد تأثيرها ليشمل مجمل الأنوات التي بها يحيا الفرد، وهي ما يشكل "هوياته" الموزعة على فضاءات لا يلعب فيها الواقعي سوى دور بسيط، هو في العادة مجرد ممر نحو عالم افتراضي لا حد

(1) وهو الكتاب الذي قمنا بترجمته إلى العربية وصدر عن المركز الثقافي للكتاب، 2019 .

لامتداداته. فعوض أن يبحث الناس في الحياة الحقيقية عن أصدقاء حقيقيين، راحوا يلهثون في الشبكات الاجتماعية وراء "صداقات" وهمية خالية من أي دفء إنساني. وهذا دليل آخر على أن الفضاء الحميمي يجنح الآن إلى الاختفاء، "فالحياة الخاصة أصبحت شذوذا"، كما يؤكد ذلك صاحبا الكتاب.

لقد جاءت هذه الثورة بالخير العميم حقا؛ فقد كسب الإنسان بفضلها أشياء كثيرة: في المعلومة ومعالجتها وتداولها وفي الصحة وطول العمر والأمن والسرعة، ولكنه خسر كل شيء أيضا، الحميمية والحياة الخاصة والحرية والحس النقدي. لقد رُدت "هويته"، بكل غناها إلى دائرة الاستهلاك وحده؛ اختفى المواطن، كما اختفى التنافس السياسي وتعدد البرامج وتنوعها، لكي يُعوض كل ذلك بآلية ضبط سياسي صارم يتحكم في الرأي العام ويوجهه، وذاك ما تقوم به الشبكات الاجتماعية بشكل "ناعم" و"طوعي"، حيث يضع الناس فيها حريتهم عند أقدام فاعلين رقميين يعرفون عنهم ما لا يعرفونه عن أنفسهم.

إنها مفارقة غريبة، فلم تقُد هذه الثورة بإنجازاتها الكثيرة، كما كان مؤملا، إلى تجدد الإنسانية وتطورها، وإلى بلورة المزيد من القيم التي تحتفي بروح الأخوة والصداقة والكرامة، بل أعلنت عن ميلاد "فرد فائق" (hyper individu) يتحرك ضد نفسه وضد المجموع ضمن ممكنات "واقع فائق" (hyper realité). إنه إنسان "مزيد" بالافتراضي والبدائل الاصطناعية، ولكنه مُفرغ من الداخل. لقد اختفى الحلم والمتخيل والفعل الاستعاري عنده لتحل محله "الرغبة" و"الاتصال الدائم"، كل ما يتحقق في "اللحظة"، كما يمكن

أن تُعاش في زمنية تنتشر في "فضاء أفقي" مصدره كل الشاشات: التلفاز والحاسوب واللوحات والهواتف المحمولة.

لا يتعلق الأمر بتمثيل مزيف للواقع، كما كانت تفعل ذلك الإيديولوجيا قديما، بل هو الإيهام الدائم "بأن الواقعي ليس هو الواقعي"، كما يقول جان بودريار؛ فعالم الحياة الفعلية لا يُدرك إلا من خلال مضاف افتراضي يُعمق غربة الفرد عن نفسه وعن واقعه، ويستدرجه إلى وحدة "ينتشي" بها وسط الجموع. إن الواقعي ناقص، وتلك طبيعته، كما هو الإنسان ناقص أيضا، وتلك عظمته وذاك مصدر قوته. ولكن النقصان في الحالتين معا لا يمكن أن يعوض بالافتراضي، بل يجب أن يتجسد في فعل إنساني واقعي يسعى فيه الإنسان إلى التغطية على جوانب النقص في وجوده، وذاك كان مسعاه منذ أن استقام عوده وانفصل عن محيط صامت ليخلق تاريخه الخاص.

لقد امتد سلطان الافتراضية في عصر الرقمية لكي يشمل كل شيء. فهي الثابت في وجودنا. فنحن لا نكف عن اللعب بهواتفنا أو لوحاتنا، إننا لا نحس بالآخرين حولنا، بل نبحث عن سلوان ومواساة وفرحة ونشوة، أو حالات استيهام، في ما تقوله الصورة في أجهزتنا. بل إن الطفل ذاته لم يعد يتعرف على محيط بِكْر تبنيه حقائق ناطقة في وجوده المادي، فحقائق هذا الوجود وتفاصيله تأتيه اليوم بواسطة الصورة أولا، وبعد ذلك تلتقط عيناه أشياء تكون صورتها في وجدانه نسخة سابقة بُنيت في الآلة بفضل تعديلات ومضافات وتحسينات فوتوشوب، واستنادا إلى مسبقات المصوِّر ومواقفه أيضا.

لذلك لا يتردد الكاتبان في تشبيه كائنات الرقمية بعبيد أفلاطون.

لقد وُضع هؤلاء في كهف مظلم تحت رحمة حراس يمنعونهم من الخروج ومن تصور عالم آخر غير عالم الكهف، وبذلك حُرموا من الشمس والحقيقة ودفء الحياة، لقد كانت ظلال أجسامهم وحدها تتحرك أمامهم وتوهمهم بأنها الحقيقة ولا شيء غيرها. إن الحراس في "استعارة الكهف" هاته هم أيضا "خالقو الوهم" وموزعوه في عصر الرقمية المنفلت من عقاله. فوابل الصور التي تنهال على الإنسان الرقمي تمنعه من رؤية الأشياء، كما هي في أحضان الطبيعة، لقد تحول البصري شيئا فشيئا إلى بديل كلي عن الواقع.

لقد نسي الناس ما يُصنف خارج الصورة، فالحقيقة فيها وحدها، ولم يعد من الممكن أن يستعيدوا وعيهم وحريتهم في رؤية الحياة خارج ما تقترحه الشاشة أو تدعو إليه. إنه الاستلاب المطلق، فما تقترحه الصورة كامل ومصفى وخال من تعقيدات لم يعد الذهن الرقمي قادرا على تحملها. وكما كان نرجس عاشقا لصورته وحدها، فإن الفايسبوكي لا يبحث في الشبكة سوى عن نفسه، عن شبيهه أو نظيره. إنه "يناضل" و"يحتج" ويتمرد" في الافتراضي، وتلك وسيلته المثلى للتعايش مع واقع يحيط به النقصان من كل الجهات. إن "أنا" واحدة لا تكفي، نحن في حاجة إلى "بديل" آخر هو الذي يغطي حضورنا في عالم موحش يحيط فيه "الأصدقاء" بنا من كل جانب، هو ما تسميه إلزا غودار "الأنا الرقمية"، "إننا جميعا ولكن وحدنا".

إن الصورة ليست مودعة في الكتب التوثيقية والألبومات العائلية، كما كانت قديما، إنها الآن منتشرة في كل مكان. لقد تراجعت حقائق الوجود وحقائق اللغة التي هي مصفاة وجودنا

وسبيلنا إلى حقائق تُبنى في المفهومي والمتخيل، لتحل محلها حقائق الصورة وحدها، فلا شيء يستقيم بدون رديف بصري هو الذي يصدِّق على التجربة. فما نعاينه الآن هو اندفاع أهوج نحو حالات الاستعراء والاستبصار والتلصص والاحتماء الدائم بما يأتي إلى العين ضمن قوة البصري وحده، في انفصل عن موحيات النظرة وجماليتها. وذاك هو سلوك هواة "السيلفي"، فهم يتلذذون بالصورة كما يفعل كل النرجسيين الجدد، أو كما يفعل ذلك الخائفون من زمنية تُدمر كل شيء في طريقها: إنه القلق الذي يتحكم في " كائن منذور للموت".

لقد تغير كل شيء في حياة إنسان القرن الواحد والعشرين، لم يعد الناس يعيشون ضمن هذه الثورة باعتبارهم كينونة مستقلة تتغذى من القيم وتنتشي بكل مظاهر العزة والكرامة والاستقلالية في القرار وفي العواطف. لقد طمرتَ اللحظةُ ذلك "الثقب" الزمني الذي نطل من خلاله على المستقبل، وغطت عليه رغبات تتناسل باستمرار دون أن تقود إلى إشباع حقيقي. إننا نحيا الزمن باعتباره "لحظة أبدية"، بتعبير ميشال مافيزولي، أو ما يطلق عليه "الحضورية"، وهي صفة جديدة لزمن تخلى فيه الإنسان عن المستقبل والماضي بكل الحنين والأمل فيهما، لكي ينغمس في حاضر لا أفق له سوى نفسه.

لقد تخلى الناس عن كل شيء في حياتهم، كما يؤكد ذلك المؤلفان، تخلوا عن حميميتهم وحريتهم، وتخلوا عن حقائق واقع فعلي لكي يحتفوا بعوالم افتراضية أنستهم دفء الإنسانيه فيهم. فلا شيء في وجودهم يمكن أن يستقيم خارج الافتراضية والمواقف المبرمجة في الصور والألعاب والمعلومات التي تسربها الأجهزة

الصريحة والخفية. لقد حل "الأيدولون" (الصور العرضية والهشة) محل اللغة. إننا لا نبني العالم كما توحي به كلمات مطواعة أو عصية، بل نكتفي باستقبال ما تقوله الصورة وحدها. لقد تخلت اللغة عن وظيفتها باعتبارها "بيتا للكينونة"، لكي تترك المجال أمام "إيموجات" (imogi) عرضية، ما يشبه لغة تكتب بالصورة تتساوي داخلها كل العواطف.

لقد أصبح سلوك الإنسان متوقعا، وبذلك فهو قابل للبرمجة والتوجيه. لقد كان بإمكان الشرطة وكل الأجهزة السرية أن تعرف عن الناس كل شيء، إلا ما تقوله النفس لنفسها، فتلك مناطق ظلت عصية على كل الطغاة. أما الآن، فإن الفاعلين في الميدان الافتراضي يعرفون عن المرء ما خفي عنه أو ما لم يفكر فيه أبدا. فهم يتتبعون خطواته في الإبحار ويتعرفون على ميولاته الواعية واللاواعية، ويلتقطون تفاصيل "شخصيته" من الصور التي يشاهد والبرامج التي يختار وتلك التي يرفض ومن الكتب التي يقرأ والفقرات التي يقفز عليها. وبذلك لم يعد للفعل السياسي أي معنى، فاللوغاريتمات كافية في توجيه الرأي العام، وهي التي تحدد له "توجهه السياسي"، كما حددت له رغباته وشكل تحققها.

يعتقد "المبحر" أنه يتحرك في المكان وفي الزمان كما يوهمه بذلك "الوجاه الرقمي"، ولكنه ليس في أي مكان في واقع الأمر، فعندما يقرر الإبحار ينفصل عن الزمن الحقيقي لكي يُلقي بنفسه ضمن زمنية بلا حدود، هي في واقع الأمر "لحظة عائمة" لا تستقر على مضمون بعينه، لأنها مدعوة إلى التجسد في صورة تتغير مع كل "نقرة". "يوهمه الاتصال الشامل أنه مرتبط مع كل الناس ضدا

على الحدود وحواجز اللغات والثقافات، والحال أنه يتحرك وحيدا داخل فضاء افتراضي مفصولا عن العالم الواقعي". "نحن بالفعل جميعا، ولكن بشكل انفرادي"، "إننا جميعا، ولكن قلوبنا شتى".

إن السر في كل ذلك، في تصور الكاتبين، يعود إلى ما يُطلَق عليه اليوم البيغ داتا (big data)، أي "مدونة المعطيات الشاملة" التي يمكن تجميعها حول الأفراد والجماعات انطلاقا من مواقع الفاعلين الكبار في ميدان المعلوميات، ومنها في المقام الأول غوغل وفايسبوك وتويتر وغيرهم. فهذه الآلية الاستخبارية الجديدة ليست مجرد حاسوب يقوم بجزء كبير مما كان يقوم به الناس من قبل، بل هو نظام رقابة شامل لا أحد يستطيع الإفلات منه. فنحن نتخلى طوعا لهذه البيغ داتا عن جزء كبير من حميميتنا وذاكرتنا مقابل اتصال مجاني نمارس من خلاله هويتنا في التلصص والنميمة والعبث الصبياني، وقليل من الفائدة العلمية.

لقد استطاعت الصناعة الإلكترونية، من خلال هذه المعطيات، أن تبرمج سلوك الناس وتحركهم وفق ما توده الآلة الاستهلاكية، أو ما يريده النظام السياسي. إنهم يعرفون عنا كل شيء: سلوكنا وعاداتنا في الاستهلاك وميولاتنا الجنسية، الصريحة والخفية، ورغباتنا، وآراؤنا في السياسة والاجتماع والإيديولوجيا. لم يعد الإنسان قادرا على الاختفاء أو التواري وراء الجدران العازلة، كما كان يفعل في المدن والقرى الصغيرة. إن عين الرقيب الإلكتروني تتسلل إليه اليوم في كل مكان. فكل نقرة يقوم بها المبحر تكشف عن ميل أو رغبة أو حالة استيهام ولكنها قد تُخفي ميلا آخر، بل قد توهم بميولات أخرى.

جزء كبير من المعلومات الخاصة بالمستهلكين يباع جهارا إلى الشركات الخاصة لكي تستعمله في البحث عن زبنائها، وجزء آخر منها يوجه إلى مصالح الاستخبارات في الدول الكبيرة والصغيرة على حد سواء. وهو ما يعني أن معطياتنا الرقمية لم تعد ملكا لنا، لقد سُرقت منا، أو نحن من وهبها لغوغل وفايسبوك نظير اتصال وعبث في الشبكات الاجتماعية، استولى عليها سادة الصناعات التكنولوجية بالمجان. كانت هوياتنا في السابق موزعة على البطاقة الوطنية والبطاقة البنكية وبطاقة الضمان الاجتماعي وبطاقة الوظيفة، وها هو يضاف إليها اليوم البطاقة الرقمية أو الافتراضية. فهذه البطاقة الأخيرة هي التي نضخ فيها معطيات تخصنا وتخص حياتنا وصحتنا ورصيدنا البنكي وطريقة إنفاقنا، وتقوم البيغ داتا بغربلتها وتوجيهها إلى الجهات المعنية بذلك.

لقد سلمنا رقابنا طوعا إلى جلاد بلا سيف، إنه يفعل بنا ما يشاء برضانا وبدون ألم، فنحن من يزوده يوميا بمعلومات عنا، وبذلك نزداد ارتباطا به وتبعية له. وهكذا سنكون، بعد أن وضعنا مصيرنا وحريتنا بين أيدي رقمية تلتقط كل شيء يخصنا، ضمن الحالة التي يصفها دوستوفسكي في الإخوة كارامازف: "سنضع حريتنا عند أقدامهم قائلين، خذونا عبيدا عندكم، ولكن أطعمونا". لقد قُضي الأمر، فقد أصبحت الرقمية جزءاً من وجدان يُصَرِّف جزءاً كبيراً من انفعالاته في الافتراضي. ومع ذلك علينا ألا نستسلم لجبروت هذه الآلة الجديدة. علينا أن نقاوم بترشيد استعمالاتها بالحد من العبثي والاستخباراتي فيها حفاظاً على حياتنا الخاصة بكل النقصان فيها.

تقديم

ستتحكم عملية جمع المعطيات المتنوعة ومعالجتها في مصير قرننا هذا. فلم يحدث من قبل في تاريخ الإنسانية أن كنا أمام هذا العدد الهائل من المعلومات. إن الأمر شبيه بالثورة التي أحدثها اكتشاف النفط في ميدان الطاقة مع بداية القرن العشرين.

لا تكتفي هذه الثورة الرقمية بالتحكم في نمط حياتنا وتوجيهها إلى ضخ المزيد من المعلومات والمزيد من السرعة في الاتصال، إنها بالإضافة إلى ذلك، تقودنا إلى حالة من الامتثالية والعبودية الإرادية و"الشفافية"، ستكون نتيجتها النهائية هي القضاء على الحياة الخاصة، حينها سيتنازل الناس طوعا عن حريتهم. ففيما وراء الوعود الطيبة وحالات الانجذاب التي لا تُرد قامت الثورة الرقمية بإطلاق العنان لسيرورة يتعرى فيها الفرد لصالح حفنة من الشركات المتعددة الجنسيات، وهي أمريكية في أغلبها، ما يُصنف ضمن المدونة الكبرى للمعطيات Big data[1]. فغاية هذه الشركات هي إحداث تحول جذري في المجتمع الذي نعيش فيه لتجعل منا كائنات مطواعة.

---

(1) البيغ داتا big data يتعلق الأمر بكل المعطيات التي يتركها المبحرون في الأنترنيت عبر فايسبوك وغوغل وآبل وأمازون وتويتر. فهذه المواقع تبرم مع المبحر عقدا إذعانيا يسمح بموجبه لهذه المؤسسات أن تستعمل معطيات حياته الخاصة جزئيا أو كليا وتبيعها للمصالح الاستخباراتية وللمؤسسات التجارية (المترجم).

كل شيء بدأ في منتصف الثمانينيات في مخابر الجيش الأمريكي. فقد تمخض عنها نظام ضخم ومحصن للتواصل يغطي الآن الكوكب الأرضي كله. لقد غيرت هذه الشبكة الرقمية، التي زاد من مداها الهاتف المحمول، جذريا من طبيعة علاقتنا مع الآخرين.

ففي كل ثانية من حياتنا نقدم معلومات حول صحتنا، وحول حالتنا النفسية وعن مشاريعنا وأفعالنا. وباختصار إننا نرسل معطيات. وتُجمع هذه المعطيات وتُعالَج، ويتم إيداعها في حواسيب لها قدرة فائقة على التخزين والإحصاء. إن الغاية من هذه المدونة الكبرى للمعطيات هو جعل العالم شفافا ومرئيا والتخلص من سلطة المصادفة. لقد كانت البرهنة الإحصائية والاحتمال الخاصين بعينات لا بأس بها من الساكنة تترك، قبل هذه الفترة، هامشا للتأويل. أما مع ثورة البيغ داتا فقد اختفت البرهنة العشوائية تدريجيا، وحلت محلها حقيقة رقمية تبلورت انطلاقا من معطيات شخصية قَبِل فيها 95 في المائة من المتصلين تقديمها طوعا. وفي سنوات قليلة سيكون من الممكن، مع تعدد الروابط، معرفة كل شيء عن كل الناس. وقريبا ستكون التكنولوجيا المتصلة قادرة على تحقيق مسح شامل حول الكائن البشري، كما يفعل ذلك الحاسوب المركزي في سيارة، ويمكن الكشف عن أغلب الذبحات الصدرية والجلطات الدماغية قبل وقوعها. وبالمثل سيكون بالإمكان توقع الأوبئة انطلاقا من أعراض يتم الكشف عنها عند بعض المبحرين.

قد يخفف الوعد بحياة هادئة من وقع ما سنخسره من حياتنا الخاصة. وربما تكون الصحة هي الميدان الذي سيتطور بسرعة

بفضل المعطيات الكبيرة. ولكن ثورة المعطيات الرقمية لن تكون حكرا على الطب وحده. فكل ما يمس الإنسان معني بها. فأن نعرف عن الناس كل شيء معناه تصور الروابط الأكثر جرأة، حتى تلك التي لم تكن متوقعة أبدا. ولن نعتمد، في عالم يمكننا التعرف فيه على 95 في المائة من المعلومات التي يعرضها الإنسان والآلات، على عينات تمثيلية، بل نقدم معرفة كاملة. ستُستعمل كل لحظة من لحظات الاتصال من أجل تجميع أكبر عدد ممكن من المعلومات. إننا نطلع على الأنترنيت والهاتف والساعة اليدوية والكاميرا والآلات المتصلة من كل نوع، سيكون العالم ضمن ذلك كله منظما لكي يُقدم كل فرد أكبر عدد من المعطيات عن نفسه. وقد أعلن حصاد المعلومات هذا، وقد تم تجميعها في الغالب مجانا، عن ميلاد سوق ضخمة. لقد أصبحت الشركات تتبادل فيما بينها عادات المستهلكين ومواقع تحركهم وعلاقاتهم في الشبكات الاجتماعية... يتعلق الأمر بأكبر "سمسار"[1] في المعطيات الرقمية، وهو أمريكي بطبيعة الحال: وتمتلك أكسيوم Acxiom وحدها معلومات دقيقة عن 700 مليون من المواطنين في العالم. فمع معرفتنا لأنفسنا ولمحيطنا تنفتح أمامنا آفاق لا حد لها.

إن للتقدم، كيفما كانت روعته، وجها آخر. لقد قذف بنا النفط إلى الحداثة، ولكن، وبعد مرور قرن ونصف من الزمن من استعمال المواد الأحفورية، ها نحن نكتشف آثاره الجانبية المدمرة للبيئة. فها هي هذه المادة التي اعتُبرت لفترة طويلة خيرا مطلقا تهدد اليوم التوازنات

(1) data broker سمسار المعلومات أو وسيط يقوم بتجميع المعلومات وتقطيرها وغربلتها لبيعها إلى المؤسسات التجارية (المترجم).

الأساسية لكوكبنا، وتهدد تبعا لذلك، ازدهار النوع البشري. والأمر يصدق أيضا على الذرة التي أحدثت ثورة في ميدان الطاقة والصحة، ولكنها اليوم تهدد وجودنا وقد تؤدي إلى دمار شامل.

وهكذا، قد تحدث كثرة المعطيات تطورا في معارفنا العلمية، كما لم يحدث ذلك أبدا في تاريخ البشرية. لقد مكنتنا العبرإنسانية transhumanisme، هذا التيار الفكري الذي تموله شركات البيغ داتا، من تصور "إنسان مَزيد"[1]. وبعد قرن أو قرنين من الآن، سيكون من الممكن إعادة بناء كائن بشري استنادا إلى ملايير المعطيات التي جُمِعت حوله. فبفضل هذه المعلومات التي حصلنا عليها حول صحتنا، يطمح غوغل الآن مواجهة الموت. هناك أحلام تدغدغ البيغ داتا بالوصول ذات يوم إلى الخلود. أي الانتصار على الخطيئة الأولى، فهي تؤمن بالفكرة القائلة إن الآلة ستنقذ الإنسان.

لا يجب أن يخفي الوعد بحياة أفضل، كما أشاعته الثورة الرقمية، الثمن الباهظ الذي علينا دفعه. ذلك أن إنسان المعطيات الشاملة، المتصل باستمرار، سيعيش كليا تحت نظرة أولئك الذين يجمعون دون كلل معلومات حوله. سينكبون على ملفنا الفردي، على كل حميميتنا وعاداتنا وسلوكنا وصورنا التجارية والسيكولوجية والإيديولوجية، كما عشناها على امتداد حياتنا.

ولن يطول بنا الزمان حتى نرى مجتمعات تقترح تقديم ملف كامل لزوج المستقبل قبل حفل الزواج. وبذلك يمكن أن يعرف

(1) homme augmenté

الشريك عن شريكه كل شيء، عاداته الاستهلاكية والإنفاقية، علاقته بالكحول وميولاته الجنسية الحقيقية، وإرثه الجيني، وقابليته لأن يصاب بسرطان أو بعصاب. سيصل مستوى المعرفة الخاصة بكل فرد حدا يمكننا من توقع سلوكاتنا، بما فيها تلك الأكثر تقززا. ستصبح مراقبة جميع الناس هي القاعدة. والقليلون سيفلتون من ذلك، عدا أولئك الذين سيقبلون الانضمام إلى الفئة الجديدة من المهمشين. ولن يكون للإنسان العاري ما يكفي من القوة لكي يقاوم ذلك في مجتمع ستكون فيه الصحة وطول العمر والأمان هي الذريعة الرسمية للشفافية.

ولم تتردد مصالح الاستعلامات في الانقضاض على هذه الفرصة الرائعة التي يقدمها عالم البيغ داتا لمراقبة كل الناس. فبما أن الأمن أصبح هو الثيمة السياسية المركزية، وبما أن الإرهاب يُنظر إليه باعتباره تهديدا كبيرا لنمط حياتنا، فإن الصناعة الرقمية أصبحت تابعة لوكالات الاستعلامات الكبرى. خاصة وأن سوق المعطيات الشاملة تحول إلى قطاع اقتصادي بين يدي جهات محدودة، غوغل آبل وميكروسوفت أو أمازون، فهؤلاء تفوقوا على الجميع. فمن المستحيل اليوم، استنادا إلى مكالماتنا الهاتفية ومكالمات محيطنا وتبادلنا للرسائل القصيرة وإبحارنا في الشبكة وتحركاتنا التي ترصدها ج ب س (نظام تحديد الموقع) أو ترصدها الكاميرات، ألا يكون المرء تحت ناظري مصالح الاستعلامات.

إن الدكتاتورية التي تصورها جورج أورويل في روايته 1984 كانت مستوحاة من نماذج استبدادية بكل مظاهر العنف فيها. أما

عالم البيغ داتا فيضع الأفراد تحت المراقبة، بطريقة دقيقة ولكنها غير محسوسة. تتراكم المعطيات دون غاية أخرى سوى تغذية قواعد البيانات بأهداف تجارية، وتستطيع داخلها الأجهزة التقاط ما يخص فردا متصلا عندما يصبح مشبوها. وليس بعيدا ذلك اليوم الذي سيقترحون فيه على العائلات، بموازاة مع المرمدة الجنائزية، مدها بمجموع المعطيات الرقمية التي راكمها الهالك طوال حياته باعتبارها خليطا من تاريخ وجوده يتضمن ملفه الصحي وانفعالاته وعاداته الاستهلاكية وميولاته الجنسية والفكرية.

فمنذ بداية القرن العشرين انتصب فاصل مطرد بين الحضور الدائم للتكنولوجيا في حياتنا اليومية وبين المستوى الضعيف لفهمنا لها. لقد ظل الجمهور الواسع بعيدا عن الرهانات المنشودة، فهو لا يعرف الشيء الكثير عن صناعة تُفضل التعتيم وازدهرت في ظلها مصالحه الاقتصادية. لقد كانت الامتيازات القريبة للمعطيات الشاملة تُخفي التحول الجذري في تاريخ الإنسانية المتمثلة في الاستعباد الإرادي لنظام من المعلومات.

لقد بذلت البيغ داتا الكثير من الجهد لكي تُمجد فضائل الثورة الرقمية، لا نرى داعيا لذكرها هنا. لن نتوقف إذن عند الآثار الإيجابية للثورة الرقمية، سينصب اهتمامنا على دراسة التهديد الكبير الذي تمثله على الحرية الفردية والحياة الخاصة وعلى حقنا في الحميمية، وفي الأعم، سنتوقف عند الخطر الذي تمثله على الديمقراطية. لقد دمرت الفاشية والشيوعية حياة الملايين من البشر، ولكنهما عجزا مع ذلك على تغييرهم أو جعلهم شفافين. أما الآن فالإنسان العاري يرزح في الأصفاد

دون ألَم ظاهر. فقبل نهاية هذا القرن سيصبح تابعا بالمطلق، فكريا وماليا، لهذا النظام الذي سيحدد تدريجيا صيغ التبادل بين حياة طويلة وقليل من الأمن الجسدي والمادي، وبين الحرية. وستتحدث عن النجاح المكيافيلي لصناعة استطاعت مراقبة الكوكب الأرضي كله بدون إكراه أو عنف.



الإرهاب والبيغ داتا

"ومع ذلك، فإننا لسنا في حاجة إلى قتال هذا المستبد ولا مقاومته، سينهار من تلقاء نفسه، يكفي في ذلك أن يرفض الناس الاستعباد. لا يتعلق الأمر بانتزاع شيء منه، بل فقط ألا نعطيه أي شيء".[1]

لقد قذف الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمية في 11 سبتمبر 2001 بالإنسانية داخل عصر المراقبة الشاملة. فقد وضعت الولايات المتحدة، تحت قيادة جورج بوش الابن، الكوكب الأرضي تحت آليات التنصت، لقد تلقت ضربة موجعة وشعرت بالمهانة لأنها لم تكن تتوقع أن يحدث شيء كهذا على أراضيها. وقد كان ذلك لصالح صناعة المراقبة الإلكترونية. يتعلق الأمر بشبكة رقمية جاءت بعد 11 سبتمبر ولكنها لم تنجح، مع ذلك، في منع حدوث هجمات إرهابية لاحقة فوق التراب الأمريكي. فالكل يتذكر ما حدث في ماراتون بوسطون في أبريل 2013، أو الهجوم بالرشاشات في سان بيرناردينو في ديسمبر 2015 حيث استطاع زوجان يشتغلان لصالح داعش قتل 14 شخصا، دون أن ننسى ذلك الطبيب العسكري الذي قتل 13 من مواطنيه في قاعدة تكساس. يتعلق الأمر

(1) Etienne de la Boétie : Discours sur la servitude volontaire.

إذن بفعالية نسبية إذا ما قورنت بالثمن الباهظ في الحريات العامة. وقد أعادت الولايات المتحدة، تحت ضغط المجتمع المدني، النظر في بعض خيوط هذه الشبكة.

وعلى العكس من ذلك، اعتبرت أوروبا المراقبة المطلقة التي أقامتها الناسا NSA[1] نموذجا يحتذى به، ووسيلة فعالة للوقاية من الإرهاب، حتى وإن كان ثمن ذلك هو التبعية المتزايدة للأجهزة الأمنية الأمريكية. ولقد دعمت الاعتداءات الإرهابية على شارلي إيبدو في 13 نوفمبر 2015 في باريس هذا الاعتقاد. لقد جعلنا من المراقبة التكنولوجية عصا سحرية، عوض أن ننظر إليها باعتبارها سلاحا من بين أسلحة أخرى. فعلى امتداد 17 سنة استطاعت المصالح الاستعلامية الفرنسية إجهاض العمليات الإرهابية المحتملة على التراب الوطني. ثم جاءت 2012، تلك السنة التي قام فيها محمد مراح باغتيال عسكريين في مونتوبان وقام بمذبحة في مدرسة يهودية في تولوز. لقد كان الأمر يتعلق بفشل للمصالح الاستخباراتية نتيجة الإصلاح الذي عرفته الاستعلامات الداخلية، كما أرادها نيكولا ساركوزي[2] سنة 2008. ففي هذه السنة سترى النور الإدارة المركزية للاستعلامات الداخلية D C R I، وهي كيان جديد سيطلق

(1) NSA National Security Agency الوكالة الوطنية للأمن، وهي مؤسسة حكومية تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية. وهي مسؤولة عن الاستعلامات الإلكترونية وأمن أنظمة المعلومات في أمريكا. وقد عرف عنها أنها تتجسس على العالم كله (المترجم).

(2) نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkosy رئيس فرنسا في الفترة الممتدة من 2007 إلى 2012 (المترجم)

عليه DGSI[1] الذي جمع بين الجاسوسية المضادة والاستعلامات العامة. لقد وجَّه هذا الزواج غير الطبيعي، حسب الخبراء في هذا الميدان، ضربة قاضية إلى استعلامات القرب التي كانت الاستعلامات العامة بارعة فيه بفضل وجود شبكة هامة كانت تغطي التراب الوطني كله. فما بين انتقال محمد مراح إلى الفعل في مارس 2012 ومجزرة 13 نوفمبر 2015، وكانت الأكثر دموية في فرنسا ب 130 قتيلا وأكثر من 300 جريحا، كانت فرنسا ضحية لأربع اعتداءات إرهابية جهادية: الهجوم على مقر الشرطة في ديسمبر 2014 في جوي لي تور، والاعتداء على شارلي إيبدو، وسوق كاشير في يناير 2015، والعملية الانتحارية في يونيو في ضواحي ليون ضد معمل سيفيسو مع نحر ضحية. وكان هناك الاعتداء بالرشاشات على تاليس في أغسطس. ويضاف إلى ذلك، في السنة ذاتها، مشروع اعتداء ضد كنائس تم إجهاضها بفعل سذاجة الجهادي الذي أطلق على نفسه رصاصة أصابت قدمه بعد أن أطلق النار على قائد سيارة. وقد تم القضاء، في سان دومي، خمسة أيام بعد اعتداءات 13 نوفمبر، على قائد الكتيبة عبد الحميد أبا عود الذي كان يستعد للقيام باعتداء إرهابي، وهي عملية تمت بفضل معلومات إنسانية، يُضاف إليها التنصت في قضية عادية للمخدرات... ويتعلق الأمر أيضا بـ"وشاية" قدمها أحد المخبزين، فهو الذي مكن من إلقاء القبض على صلاح عبد السلام المسؤول عن اللوجيستيك.

---

(1) DGSI direction générale de la Sécurité intérieure الإدارة العامة للأمن الداخلي في فرنسا (المترجم).

ومع ذلك، ظل جهاز الدولة مصرا، في عهد فرانسوا هولاند، على تقوية الاستعلامات الإلكترونية على حساب الاستعلامات البشرية والتسلل إلى الشبكات الجهادية. فقد كان كل فشل يتحول إلى حجة -إن لم يكن ذريعة- لتوسيع الشبكة والتضييق من خيوطها دون الاهتمام بجودة الصيد. فالأساسي عندها هو كمية المعلومات التي كانت تُجمَّع، دون اهتمام بجودة القطف. فأغلب الجهاديين الذين تحركوا في التراب الفرنسي كانوا معروفين لدى مصالح الاستخبارات، فقد وُضعوا جميعهم ضمن "الملف مشبوه"[1]. ولأننا تركنا جانبا الاستعلام البشري، فإن مصالحنا لم تعد قادرة على تحديد الأهداف التي لها الأولوية لكي تركز عليها كل وسائلها. وقد اعترف بذلك حديثا عميل من عملاء الناسا ويليام بيني حين صرح: "إذا كانت غايتنا هي القبض على أشخاص ارتكبوا جرائم، فإن الحصول على أكبر قدر من المعطيات حول كل سكان المعمور قد يُمكن من ذلك، ولكن إذا كانت الغاية هي تفادي المجزرة قبل وقوعها، فإن هذا لن يكون هو الطريقة الصحيحة"[2]. ويضيف قائلا: "الطريقة الصحيحة في ذلك هي تحليل المعطيات بطريقة عقلانية وتركيز التحليل على مناطق بعينها وعلى أشخاص بعينهم يكونون موضوع شبهة، أي إرهابيين معروفين".

وقد أضافت الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تستدرج عمالقة الرقمية إلى مكافحة الإرهاب، إلى لعبتها ورقة مركزية، يتعلق الأمر

---

(1) يطلق عليه بالفرنسية fichier S وحرف S يحيل على suspect أي مشبوه (المترجم).

(2) AFP,19 novembre 2015

بذلك المضاف الحاسم الذي يكمن في مراقبة "دائرة المعلومات"[1]. والمفارقة في ذلك أن البيغ داتا ذاتها، دون رغبة منها، تصرفت كمنفاخ على جمر الإسلاموية الجذرية. فالإرهاب لا يهدد مجتمعاتنا استنادا إلى عدد القتلى الذين يسقطون، بل من خلال الضجة الإعلامية للعمليات الإرهابية في الأنترنيت. فبدون رغبة منها تقوم البيغ داتا بنشر هذه الصدمة ذات التأثير الكبير في قلب المجتمعات الغربية. يُحدث العنف المزمن الذي ألفته ديمقراطياتنا مذبحة حقيقية لا تخيف الرأي العام. لقد خلفت العمليات الإرهابية التي وقعت فوق التراب الأمريكي بين 2001 و 2013، 3000 قتيل، في حين أن عدد الذين قُتلوا بالرصاص فيها يناهز 400000 في الفترة ذاتها.

تستعمل داعش الأنترنيت أكثر بكثير من استعمال تنظيم القاعدة له. فالشبكات الاجتماعية هي التي مكنتها من نشر إيديولوجيتها الدموية على مستوى المعمور. فمسلسل الفيديوهات الدعائية كانت تنتقل من صفحة إلى أخرى في الفايسبوك، وبذلك شوهدت ملايين المرات بفضل الشبكة، وهي فيديوهات أنجزها عمر ديابي الملقب بـ عمر أومسين، وهو فرنسي/سنغالي كان يُنظر إليه إلى يوم وفاته سنة 2015 باعتباره أحد أكبر المستقطِبين للجهاديين الفرنسيين. فلم يكن لداعش أن تستقطب آلاف المقاتلين في كل أرجاء العالم دون الاستعانة بالشبكات الاجتماعية، فقد استعملت من خلالها قدرتها السحرية من أجل جلب شباب غربي تائه، ولم يتم ذلك في

---

(1) infosphere والمقصود بها مجموع المعلومات التي تشكل عالما جديدا يبنى من المعطيات التي تستخرج من بروفايلات المبحرين (المترجم).

داركنيت darknet[1] فقط التي سنتحدث عنها لاحقا. تُعتبر مشاهدة المواقع الجهادية اليوم في فرنسا، تلك التي ينفَّذ فيها حكم الإعدام على ضحايا، جرما يحاسب عليه القانون، ولكن غوغل أو فايسبوك يرفضان القيام بدور الرقيب، رغم تصريحاتهما الرسمية بخلاف ذلك. وتزعم البيغ داتا، وهي الحامل الأول على المستوى العالمي للدعاية الجهادية، في الوقت ذاته، أنها تقدم الترياق ضد الإرهاب من خلال جمع أكبر قدر من المعلومات حول الجهاديين ووضعها بين أيدي مصالح الدولة. وهو ما يطلق عليه في لغة الأعمال صفقة "رابح/رابح".

(1) darknet هو شبكة اجتماعية تستعمل أدوات تقنية من أجل التمويه والتستر على الهوية الحقيقية للمبحر (المترجم).

كيف تنظر البيغ داتا إلى العالم

"ينظر الصينيون إلى أمريكا باعتبارها الأمة التي كانت تهيمن في الماضي، وينظرون إلى غوغل باعتباره الأمة التي ستهيمن في المستقبل"[1] .

في بداية 2014 سافر يانيك بولوري، وهو رئيس مجموعة هافاس[2]، إلى سان فرانسيسكو للقاء مسؤولي غوغل. أسابيع بعد ذلك، سيحكي هذا الملياردير الفرنسي أمام مجموعة من رؤساء المؤسسات أثناء مناظرة حول البيغ داتا[3] عن سفره قائلا: "عندما حطت بنا الطائرة شغَّلت هاتفي وتلقيت رسالة نصية تخبرني أن هناك بجانب فندقي مطعما يابانيا يقدم السوشي سومون بتخفيض 15 في المائة عن السعر العادي. فأقلقني هذا النص، فقد كانت تلك هي وجبتي المفضلة. وفي اليوم الموالي في مونتين فيو، مقر غوغل، أخبرتهم بهذه الحكاية وتساءلت بصوت عالي، من يكون

(1) Carles-Edouard Bouée, Président de Roland Berger Strategy Consultant septembre 2014

(2) هافاس Havas مجموعة فرنسية متخصصة في التواصل وخاصة في ميدان الإشهار (المترجم).

(3) Making sens of big data, colloque de l'association Technion, France, 15 décembre 2014, Maison de la chimie

هذا الذي بعث هذا الإشهار؟ فرد أصحاب غوغل: "نحن من فعل ذلك، لقد حددنا موقعك منذ نزولك في المطار، لقد اطلعنا على مذكرتك وبريدك وعرفنا في أي فندق ستنزل، وأنك تحب السوشي سومون، وهكذا اشترينا لك في الحال إشهارا يدعو إلى مطعم بجوار الحي الذي ستقطن فيه. لاحظ، إن الأمر مدهش، نحن قادرون على كل شيء، ولكني تساءلت: "وما موقع الحياة الخاصة عندكم؟ فأجابوني: آه الحياة الخاصة، أنتم في أوروبا تتحدثون كثيرا عنها، وقلت في نفسي: عوض أن نوقف الأشياء، علينا أن نتقدم ونراهن على الحس السليم".

ترسل في كل لحظة حوالي 300000 تغريدة و15 مليون رسالة قصيرة و204 مليون رسالة إلكترونية في كل أنحاء المعمور، وتُرقن مليونان من الكلمات المفاتيح في المحرك غوغل. وتُعد الهواتف المحمولة وسمارتفونات أخرى أدوات تحصل من خلالها البيغ داتا على معطياتنا الشخصية. ولا وجود لأي قطاع يمكن أن يكون في منأى من هذا التقطير، بما فيها وسائل الإعلام والتواصل والأبناك والطاقة والسيارات والصحة والتأمين... فالأهم في كل هذا أن المبحرين هم من يقدم هذه المعطيات. فما نشتريه أو نود شراءه، وما سنستهلكه وما سنفعله في معيشنا اليومي وصحتنا وطريقتنا في قيادة السيارة وسلوكنا العشقي والجنسي وآرائنا، كل هذا تتم دراسته. ها هي الإنسانية تنتج منذ 2010 من المعلومات في يومين ما تكون قد أنتجته منذ اكتشاف الكتـــابـة، أي منذ حوالي 5 آلاف و300 سنة. 98 في المائة من هذه المعلومات هي الآن مخزنة في

شكل رقمي. نحن في حضرة تخزين كلي لمعطيات العالم. فكل شيء يمر عبرها، الصور العائلية والموسيقى ولوحات شهيرة وقصائد وروايات، ووصفات الطبخ... يتعلق الأمر بضبط شامل يُمكن من معيرة الحياة الإنسانية في أدق تفاصيلها.

فإذا كان مصدر 70 في المائة من هذه المعطيات هم المبحرون أنفسهم، فإن الشركات الخاصة هي من يستغلها. وهكذا، فإن آبل وميكروسوفت وغوغل أو فايسبوك يمتلكون 80 في المائة من المعلومات الشخصية الرقمية للإنسانية. يشكل هذا المنجم الذهب الأسود الجديد. ففي الولايات المتحدة وحدها يصل رقم المعاملات العالمية للبيغ داتا- الكلمة لم تدخل إلى القاموس إلا في سنة 2008 –إلى 8.9 مليار دولار بنمو يصل إلى 40 في المائة كل سنة، ويمكن أن يتجاوز 24 مليار سنة 2016.

لقد نجح غوغل وآبل وفايسبوك وأمازون في الاستحواذ على مجموع العالم الرقمي. فـ"شركات القارة السابعة" هاته، كما يسميها البعض، هي التجسيد الجديد للقوة الأمريكية الفائقة. لقد قامت الولايات المتحدة، من أجل تحقيق هيمنتها الاقتصادية، بربط مصالحها بالمصالح البترولية بفضل انقلابات عسكرية في الخارج (باناما...) وبالدعم اللوجستي لحركات حرب العصابات (نيكاراغوا)، والتدخل العسكري الخارجي (العراق). ومع تفوقها في الميدان الرقمي ذهبت واشنطن إلى أبعد من ذلك. فالمصالح لم تعد هذه المرة متداخلة، بل أصبحت تذوب في بعضها البعض. وسينجب هذا التزاوج بين أقوى دولة في العالم وبين المؤسسات الصناعية

المتولدة عن عالم المعطيات كيانا من نوع جديد. والحاصل أن هذه القوة المتحولة التي تم تجميعها من خلال العولمة تُحفز على إعادة صياغة البشرية. ألا يدير الثلاثة عشرة خادوما[1] "راسين"[2] التي تتمركز فيها كل سجلات أسماء الميادين في كل مواقع الأنترنيت على مستوى المعمور، إثنتى عشرة مؤسسة فقط، منها تسع من جنسية أمريكية؟ وهكذا، فإن الولايات المتحدة تجمع بين يديها دليل الويب، وتقوم بتجميع كتل هائلة من المعلومات حول مصدر الاتصال ووجهته على المستوى العالمي. بل إن منح أسماء الميادين هو من صلاحيات إيكان Icann[3]، وهي بنية مركزها في كاليفورنيا وتابعة لوزارة التجارة الأمريكية.

إن الولايات المتحدة هي من يتحكم اليوم في البيغ داتا. لقد أصبح بيل غيتز[4] وآخرون، مارك زاكربيرغ[5] صاحب فايسبوك، هم روكفيلر الجدد. هؤلاء الذين فوضتهم الدولة الأمريكية باستغلال وتخزين وتكرير المناجم الرقمية. فلم يحدث في تاريخ البشرية أن وضع عدد قليل من الأشخاص بين يديه هذا الكم الكبير من السلطة

---

(1) خادوم جمع خواديم serveur

(2) تدير هذه الخواديم الثلاثة عشر عناوين الميادين وألقاب المواقع في الأنترنيت في العالم أجمع.

(3) *إيكان Icann (Internet Corporation for Assigned Names and Numbers)*
هي منظمة ذات نفع عام تجمع في الانترنيت بين كل الذين يدافعون عن الأمن والسلم والاستقرار (المترجم).

(4) Bil Gates صاحب ميكروسوفت (المترجم).

(5) Mark zuckerberg صاحب فايسبوك (المترجم).

والثروة. لقد أعلن العالم الرقمي عن ميلاد أوليغارشية فائقة. وعلى عكس ما حدث مع النفط، فإن المعطيات هي مادة أولية لا تنفد، إنها تنبعث باستمرار من أنابيب الرقمية. فـ 90 في المائة من كتلة المعطيات جُمِّعت في السنوات الأخيرة.

ففي أقل من 15 سنة أصبح الأمريكي غوغل، الذي اتخذ اسم ألفابيت Alphabet، أكبر مقاولة في العالم. ففي سنة 2016 وصلت قيمته في البورصة إلى 544.7 مليار دولار، أكبر مرتين من العملاق النفطي إيكسون موبيل. فوراء ألفابيت هناك الآن ثلاثة بيغ داتا أخريات: آبل ومايكروسوفت وفايسبوك. لقد أصبح إيكسون موبيل، الذي كان يحتل سنة 2011 المرتبة الأولى في بورصة الرأسمالية العالمية، في المرتبة السادسة. فآبل وألفابيت وحدهما يجلسان على جبل من السيولة ب 289 مليار دولار.

وكما هو الشأن مع صناعة النفط، فإن الفائض في المواد الأولية يتم في مرحلة التكرير. وبعد تشحيم الحواسيب التي تتغذى دائما بالمزيد من المعلومات، هناك التكرير الذي يتم بفضل لوغاريتمات متطورة، يتعلق الأمر بمعالجة للمعلومة أصبحت ممكنة بفضل وجود ذاكرة دائمة التطور مع معالج قوي جدا. وتمتلك مؤسسة من مثل غوغل من أجل القيام بذلك 45 ضيعة على الأقل منتشرة في كل أرجاء المعمور. إن العدد سري. هناك خواديم تشتغل بالبطاريات تغذي جزءا من حركة الأنترنيت على مستوى العالم. وهناك من يقدر أن كل مركز من هذه البيغ داتا الضخمة أو مركز لمعالجة المعطيات يستهلك من الكهرباء ما يعادل استهلاك مدينة أمريكية

من 40000 ساكن. ولا عناية بالبيئة في كل هذا. فقد اعترف غوغل سنة 2012 أنه يبث 1.5 مليون طن من الغازات، ما يعادل ما تنتجه بوريكنا فاسو من الكاربون سنويا. ويقوم المحرك يوميا بمعالجة 24 بيتـا أوكتي من المعطيات، ما يعادل ألف مرة المعطيات المخزنة في أكبر مكتبة في العالم، وهي مكتبة الكونغريس الأمريكي في واشنطن.

فبقدر ما تكون المعطيات مصفاة بقدر ما تزداد قيمتها، ومستوى الغربلة يعود إلى نوعية اللوغاريتم. لقد ولد غوغل من لوغاريتمات أُطلق عليها "باج رانك" page rank ابتكره مؤسساه سيرغاي برين ولاري بايج سنة 1998. وبفضل هذا اللوغاريتم الثوري تحولت مؤسسة مونتان فيو إلى محرك كوني للبحث يحتكر 70 في المائة من الأبحاث في الأنترنيت على المستوى العالمي. وتمر 90 في المائة من أبحاث المبحرين في أوروبا عبر غوغل.

هل تعرفون قاعدة غابور Gabor؟ إنها منقوشة في لوحات قانون البيغ داتا. فحسب الفزيائي الهنغاري دونيس غابور، مخترع الهولوغرافيا[1] والحاصل على جائزة نوبل سنة 1971 "كل ما يمكن القيام به تقنيا يجب أن يُنجز، دون مراعاة لمقبوليته الأخلاقية أم لا". يجب التقاط كل معلومة، فما هو أساسي ليس جودة ما يتم تجميعه، بل التجميع في حد ذاته. إن الغاية ليست مرتبطة بالتجميع، فاستعمالها لن يكون بالضرورة هو ما كانت موجهة إليه أصلا.

---

(1) holographgie إنتاج صورة مجسمة من خلال خلق تداخل بين شبكتين من الليزر (المترجم)

إن أدوات الحصول على المعلومات الخاصة بالمواطنين المستهلكين هي بين أيدي آبل وميكروسوفت وغوغل وفايسبوك. ويوجَّه جزء منها إلى مصالح الاستعلامات الأمريكية. لم تعد معطياتنا الرقمية في ملكنا، لقد سلبوها منا، لقد استولى عليها سادة الصناعات التكنولوجية بالمجان. لقد سُرق جزء منا، ما يعود إلى بصمتنا الرقمية. لقد بنت البيغ داتا سلطتها على حساب الأفراد. ومع ذلك تدعي عكس ذلك. وقد شرح المدير العالم لفايسبوك مارك زاكربيرغ ل 31 مليون من المبحرين الذين يتابعونه في الشبكة الاجتماعية عشقه لكتاب: "نهاية سلطة" لصاحبه موازيس ناعيم Moisés Naim. وهو مصنف يحكي، كما يقول عنه بحماسة، "كيف أن العالم تغير لكي يعطي للأفراد مزيدا من السلطة ضدا على الأنظمة كالدولة أو الجيش". فالفرد في تصوره آخذ في التحرر، ذلك أن السلطة الحقيقية لم تعد حكرا على الدولة، بل يتحكم فيها الأفراد والروابط الاجتماعية التي ينسجونها فيما بينهم، وهو ما يساعد عليه فايسبوك ...

سلطة الدولة: هو ذا العدو الأول. لقد أصبحت الدولة في تصور أغلب مقاولي وادي السيليكون Silicon Valey[1]، في شكلها الحالي عائقا يجب القضاء عليه، وخوفهم ليس من البيغ بروثر، بل من البيغ فاثر. ويعتبر باتري فريدمان، وهو حفيد الاقتصادي اللبرالي الكبير ميلتون فريدمان ومهندس سابق عند غوغل، أن

(1) Silicom Valey وترجمتها التقريبية هي وادي السيليسيوم ويشير إلى الصناعات المتطورة المتمركز في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تابعة لغوغل (المترجم).

"الحكومة هي صناعة غير فعالة"، وأن الديموقراطية "لم تعد ملائمة". ويشرح لمن يعنيه الأمر أن النظام السياسي الحالي تقادم، وأن القواعد المنظمة للتجارة أو استعمال المعطيات الخاصة والعمومية هي أمور قديمة، وأن كل هذا يعوق التقدم. ويناضل باتري فريدمان من أجل استقلالية مقاولات الهاي تيك. ففي سنة 2008 أسس معهد السيتيندينغ[1] كانت الغاية منه خلق غطاء للكوكب الأرضي يتشكل من "مدن/أمم عائمة" تتحرك خارج سيادة الدولة. وقد كان فريدمان قد استخلص 1.5 مليون دولار من بيتر ثييل، وكان هو مؤسس باي بال، الرائد العالمي في الدفع عبر الأنترنيت، وهو المنافس الرئيسي لشبكة بطائق الدفع. وسبق له أن صرح في أبريل 2009 في موقع معهد كاتو[2] بأن هناك صراعا محموما بين "التكنولوجيا والسياسة". وفي خريف 2013، عندما فرض صراع حول الميزانية على الحكومة الفدرالية الأمريكية إغلاقا مؤقتا لجزء من خدمات الدولة، كان رد بيتر سريعا: "إن المقاولات أرفع شأنا من السلطة. فهي إذا أغلقت، سينهار السوق المالي"، أما إذا توقفت الحكومة، فلن يحدث أي شيء، وسنواصل التقدم، فلا أهمية لتوقفها. إن شلل الحكومة هو في الواقع أمر يُرضي كل الأطراف". ويتفق بيتر ثييل في هذا مع فايسبوك، وهي المقاولة التي يُعد أكبر مساهم خارجي فيها. ففي ديسمبر الماضي أعلن رئيسها مارك زاكربيرغ جهاراً أنه يقدم هبة من 99 في المائة من أسهمه إلى

(1) Seasteading Institute

(2) Libertarian Think tank Cato institute معهد كاتو وهو خلية للتفكير مقرها واشنطن (المترجم).

مؤسسته الإحسانية، وهي مبادرة شان زاكربيرغ[1]. يتعلق الأمر بمنظمة، ليست مجبرة، حسب قانونها الداخلي، على تمويل أعمال خيرية، ولكن بإمكانها الاستثمار في مقاولات خاصة. وهو ما يتطابق مع هدفها المعلن: "تطوير الممكنات البشرية والنهوض بالمساواة". إن غايتها، بالصريح الواضح، هي نشر رؤية للعالم هي تلك التي يتبناها زيكربيرغ القائلة بأسبقية الخاص على العام والريبة من الدولة.

وقد شرح بالاجي سريفاناسون، وهو نجم صاعد في عالم الأنترنيت ومتخصص في البيتيكون[2]، في محاضرة ألقاها في "وادي سيليكون أولتيمات إكسيت"[3] في أكتوبر 2013 أن الولايات المتحدة أصبحت عملاقا يسير نحو الانحطاط، وسيلفظها التاريخ، وعلينا خلق أمة قوامها الشركات". وقد أكد أنه عندما تصبح مقاولة تكنولوجية ما غير قادرة على مسايرة الركب، فلا تحاولوا إصلاحها من الداخل، يجب التخلي عنها وخلق شركة أخرى. لماذا لا نقوم بالشيء ذاته مع البلاد؟". وجاء دور لاري باج سنة 2014 الذي صرخ في وجه جمهور من المشتغلين في المعلوميات: "هناك الكثير من الأشياء الهامة والمثيرة التي يمكننا القيام بها، ولكنهم يمنعوننا من ذلك، لأنها غير قانونية في نظرهم".

---

(1) Chan Zukerberg Initiative مبادرة شان زاكربيرغ، هي مؤسسة أسسها صاحب فايسبوك لتحقيق المساواة بين الأطفال (المترجم)

(2) البيتكون bitcoin عملة افتراضية يتم تداولها في النيت (المترجم)

(3) Silicom Valey Ultimate Exit

لقد تمزق الشراع. فخلف المواقف المعتدلة لرواد الرقمية، هناك إرادة القضاء على الديمقراطية التي أصبحت عائقا في تصورهم. ووسائل الإعلام أيضا أصبحت عائقا. وقد كشف شعار غوغل عن ذلك: "يجب تنظيم المعلومة حول العالم لكي تصبح كونية وفي متناول الجميع". فمن أجل القضاء على السلطة الخامسة تتوفر البيغ داتا على مخطط حاسم: يجب إضعاف الخاص من أجل مد اليد نحوه وإبرام صفقة المغفلين معه. فبعد أن حصلت الصحافة الفرنسية على 6 مليارات من مداخيل الإشهار تمردت وطالبت من محرك البحث أن يؤدي مبلغا آخر عن المقالات الـمُحال عليها في خانة الأخبار عنده. ولكي لا يفرض عليه القانون تأديتها، قدِم إيريك شميدت، رئيس مجلس إدارة غوغل في الفاتح من فبراير 2013 إلى فرنسا للتداول شخصيا في الإليزيه مع ممثلي الصحافة الفرنسية. وكانت النتيجة هي: عوض أداء ضريبة، خلقت الشركة المتعددة الجنسيات "صندوقا من أجل التجديد الرقمي للصحافة"، وذلك من أجل "تدعيم" مشاريع تمكن من تسهيل انتقال جرائد الأخبار السياسية والعامة إلى العالم الرقمي"، كما صرح بذلك غوغل. لقد حصلت الجرائد اليومية والأسبوعيات الفرنسية التسع الأساسية ثلث الغلاف المالي الذي كان يقدر بـ 60 مليون أورو. يتعلق الأمر بوسيلة ذكية من أجل التخفيف من انتقادات وسائل الإعلام استنادا إلى نص حرره فرانسوا هولاند بدقة، كما لو أن إيريك شميدت كان رئيس دولة. أما فيما يخص فايسبوك، فقد وقعت هذه المؤسسة في 2015 عقدا مع تسع وسائل إعلام أمريكة وإنجليزية وألمانية. وصُمم لوغاريتم مهمته الحسم في نوعية المقالات التي يمكن أن تنشر في

الشبكة. وهكذا، فإن فايسبوك يتصرف وكأنه مصفاة يمكن أن تضخم من وقع هذه المعلومة أو تلك التي ينتجها الآخرون أو تقلل من شأنها، وذلك حسب منطقه الخاص. وبذلك أصبحت الجرائد طيعة شيئا فشيئا في يد مارك زاكربيرغ. والمنطق نفسه طُبق مع أنستان أرتيكل، وهو وسيط إعلامي يُمكِّن انطلاقا من الشبكة الاجتماعية من الوصــول إلى مضمون بعض الجرائد - لوباريزيان و20 دقيقة، وباريس ماتش وليزيكو في فرنسا -، وسيكون فايسبوك هو المتحكم في السوق بطبيعة الحال. وستكون الرقابة مع آبل، مباشرة بشكل أكبر. فالمؤسسة صاحبة التفاحة تمارس مثلا حقها في الرقابة على الانحرافات الرقمية للجرائد التي يتصفحها الناس على أيباد أو أيفون. فقد يحذف مقص الرقيب صورة ما إذا كانت غير لائقة. وهكذا، فإن المؤسسة أثارت ضجة عندما حذفت من آبل سكور بودكاست، وهو برنامج يُقدم في "فرنسا موسيقى" كانت مهداة إلى الإيروسية التي مثلها العري الشهير لماني[1] في أولامبيا.

لقد تقادمت الديمقراطية في تصور البيغ داتا، كما تقادمت قيمها الكونية، وتقادم مفهوم المواطن الذي اخترعه اليونانيون. وتعتقد أنطوانيت روفروي، وهي باحثة في القانون في جامعة نامور، أن هذه الشركات تهدف إلى إقامة "حكومة لوغاريتمية"[2]، وهي نوع من الحكومة لم يسبق أن رآه الناس و"تشتغل من خلال إسقاط

---

(1) إدوار ماني Edouard Manet فنان تشكيلي فرنسي (1832-1883) اشتهر بلوحته "أولامبيا" التي تمثل لامرأة عارية تتلقى باقة ورد من امرأة سوداء (المترجم).

(2) http : works.bepress.com_antoinette_rouvroy

استباقي للممكنات، عوض أن تفعل ذلك من خلال تقنين السلوك، ولا تتوجه إلى الأفراد إلا من خلال إنذارات تخص ردود الفعل، عوض أن تستند إلى قدرتهم على الفهم والإرادة".

فقد يكون المستقبل الذي ترسمه البيغ داتا بداية انهيار لنمط من المجتمع أو الدولة/الأمة، وستتلاشى طبقة سياسية إلى أن تختفي نهائيا. إن الديمقراطيات تختنق، وكذا الأنظمة التي تمثلها. فهل سيبقى للتصويت كل أربع أو خمس سنوات من دلالة عندما تكون البيغ داتا، في سنوات قليلة، قادرة على معرفة آنية لمضمون رد فعل كل فرد على كل اقتراح حول تنظيم جماعي للمجتمع؟ لا أعتقد ذلك. وماذا يمكن قوله عن الصعوبة التي تواجهها الدولة في ممارسة إحدى صلاحياتها أمام البيغ داتا: رفع الضريبة؟ فنحن نعرف مثلا أن أغلب فروع البيغ داتا التي تشتغل في فرنسا تدفع القليل من الضرائب أو لا تؤديها أصلا، وذلك بسبب وجود محددات ضريبية أقل نسبة في أوروبا ذاتها مثل اللوكسومبورغ أو إيرلاندا. إن عالم البيغ داتا، مع ما يتوفر عليه من مداخيل ضخمة غير خاضعة للمراقبة، هو عالم عولمة بلا حدود ستقضي على فكرة الحدود وتهدد النموذج الأوروبي الذي مازال متخلفا في ميدان المعطيات.

نبوءة أفلاطون

"ألا تعتقد أنهم إذا تداولوا فيما بينهم فسينظرون إلى الظلال أمامهم باعتبارها أشياء حقيقية"(1)

"ستكون ظلال الأشياء عند هؤلاء الرجال المكبلين هي الحقيقة ذاتها، ولن يروها إلا من خلال الظلال". لقد بسط الفيلسوف اليوناني أفلاطون منذ 2500 سنة في كتابه الجمهورية مصير هؤلاء الرجال الذين وُضعوا في كهف منذ ولادتهم. فقد كان كل أسير منهم تحت مراقبة حارس يوهمه أن الظلال المنعكسة على جدار الكهف هي الواقع، وبذلك يحول بينه وبين وعي وجوده. إن الحراس في هذه "الاستعارة المجازية" هم أيضا خالقو الوهم، فهم يضعون سجناءهم في حالة سلبية وحالة تبعية للواقع المنعكس على الجدار. يُخدر هذا السيل الدائم من الصور المعتقلين إلى درجة أنه يسلبهم كل رغبة في الانفلات والهرب بحثا عن الحرية. وها هي نبوءة أفلاطون تتحقق الآن. فنحن مكبلون بالأوهام في العالم الذي تريده البيغ داتا، كما لم نكن أبدا من قبل.

إننا نتصرف كما لو أنهم وضعونا في كبسولات في مرآة مشوهة هي في الوقت ذاته زجاج بلا طلاء خلفي. لقد أصبح

---

(1) Platon : La republique VII, V siecle avant J-C

انعكاس الواقع في أذهاننا أهم من الواقع ذاته. فأحد أعراض الداء الذي أصابنا هو ميلنا الشديد إلى الصورة /ذكرى. يتعلق الأمر بسعار بصري شجعت عليه السمارتفون التي تمكن من تصوير وتخزين عدد لا يُحصى من الصور وتقاسمها في كل أرجاء المعمور. لقد تبادل الناس فيما بينهم 80 مليون صورة وفيديو على أنستغرام، ويشتمل التطبيق تقاسم الصور والفيديوهات على فايسبوك على 400 مليون مستعمل. فما هو أساسي ليس اللحظة، بل وجهها الرقمي، إن الحاضر لا يستقيم إلا في شكل ذكرى مكبسلة. فما قيمة أن يتسلق المرء قمة الكالماندجارو إذا لم ينشر ذلك في الفايسبوك أو التويتر؟ عندما شغَّل المختبر الأوروبي لفيزياء الجزيئات في جنيف LHC، أكبر مسرع للجزيئات تم تصوره لحد الآن، توقعت بعض الأذهان التخيلية أن التجربة ستخلق ثقبا أسود سيدمر الأرض كلها. ولم يحدث شيء من هذا من حسن الحظ. ولكن، ودون أن نعي ذلك، فإن رقمنة العالم ستعلن من جانبها عن الخروج من الواقع. يتعلق الأمر بظاهرة غير خاضعة للمراقبة ستبتلع الواقع المحسوس، كما يفعل ذلك الثقب الأسود مع الأرض.

في سنوات الخمسينات، عندما بدأ تعميم التلفزة، كان الفيلسوف الألماني غانتر أنديرس قد أحس، وهو يتأمل هذه النوافذ المضيئة، بالخطر الآتي، وهو السلطة الجذابة للصور. وقد حذر الناس قائلا: "عندما يصبح الشبح واقعيا، فإن الواقع هو الذي سيصبح شبحا". إننا نلتقط صورة لمحتوى الصحن ذاته، ضدا على الطباخين. هناك وباء أصاب في العالم أجمع الزبناء الذين عندما يوضع الصحن أمامهم يخرجون سمارتفون لكي يؤبدونه وينشرونه في الشبكات

الاجتماعية. يتعلق الأمر بتقاسم وهمي يجعل من الصحن مجرد خدعة، لأن الأساسي، أي الانفعال الذي أحس به المصور وهو أمام الصحن، لا يمكن رقمنته، دون أن نتحدث عن روح الصداقة التي تجمع بين الناس حول الطاولة. فما هو أساسي هو هولوغرام[1] الحياة. إن صورة الواقعي أقوى من المعيش. تحيل موضة السيلفي بطريقة جذابة على الظلال المنعكسة على جدران كهف أفلاطون.

يشبه أسرى الداتا عصافير تلتقط، بهوس يصل حد الألم، فتات الزمن مدفوعة بوهم القدرة على إيقاف الكرونونس. يعتقد الناس أنهم يعيشون الحياة بكل عنفوانها، والحال أنهم لا يوجدون في أي مكان. لقد أصبحنا، وقد استحوذت علينا دقة الافتراضي، نكره الواقعي ونكره تعقيداته وعيوبه ولا توقعيته المصنوعة من حظ مضلل. فلماذا سنضيع الوقت في طابور للدخول إلى متحف مادام آرت بروجي غوغل[2] يقترح علينا بنقرة واحدة رؤية ما يقارب 40000 عمل مرقمن بجودة عالية. ولقد زار أكثر من 30 مليون من المبحرين هذا المركز الافتراضي من 150 متحفا حيث بإمكاننا التوغل إلى أدق تفاصيل اللوحات التي أعيد بناؤها بصورة صيغت بـ 7 ملايير بيكسيل. فماذا يعني آر بروجيكت، إن لم يكن ذلك

---

(1) هولوغرام hologramme. وهو تقنية تمكن من تسجيل حجم شيء ما بأبعاد ثلاثية، واستعادته في شكل صورة. وهي التقنية التي كان قد استعملها جان لوك ميلانشون مرشح فرنسا الأبية في الانتخابات الرئاسية الأخيرة (2017)، حيث ظهر في تجمع في مارسيليا وفي باريس في الوقت ذاته. والمقصود هنا أن الحياة الفعلية لا قيمة لها قياسا بصورتها (المترجم).

(2) L’art projet Google

وهما؟ إنه متحف مزيف يعج بالنسخ. يوهمنا غوغل بحميمية غير مسبوقة مع الأعمال الفنية، في حين أننا نحن الآن أشد ما نكون بعدا عنها. تحاصرنا الرمال المتحركة للتفاصيل من كل جانب. إن درجة الدقة اللاإنسانية هاته التي ننتشي بها ليست في واقع الأمر سوى أثر عبثي. وقد تأسف رئيس تحرير مجلة الفنون الجميلة، فابريس بوستو، الذي يُعتبر من الشخصيات الفرنسية النافذة في الأوساط الفنية قائلا: "عندما نهتم بتفاصيل عمل فني ما، فلن نكون أمام بيكسيلات قائمة على 0 و1. فلا وجود للوحات حقيقية في المتحف الافتراضي الذي يقدمه غوغل، يمكن بالتأكيد تكبير هذه اللوحات إلى ما يقارب 150 لطخة ريشة، ولكن لا انسجام في كل هذا". ويضيف: "وبالمثل يمكن الاطلاع على عدد كبير من الأعمال الفنية دون أن نغادر البيت، ولكننا سنظل بعيدين عنها، فما ينقص هو رد الفعل الكيميائي بين اللوحة والمتفرج، ذلك اللقاء الذي نكون فيه على يقين أننا أمام الأصل، لا أمام نظيره الرقمي، وهذا أمر يغير كل شيء"[1]. إن التجربة سطحية، إنها منتزعة من الجسد، ولكنها مع ذلك جذابة. وقد تساءل أفلاطون في الجمهورية بصدد أسير الكهف الذي لا يرى سوى الظلال: "ألا يصيب عينيه أذى إذا نحن أجبرناه على النظر إلى النار في حقيقتها، حينها سيحاول أن يرتد بطرفه عنها لكي يستعيد طاقة الإدراك عنده؟ وألا يعتقد أن ما يراه مباشرة هو أكثر وضوحا مما نحاول أن نقدمه إليه؟".

إن الواقع المسنن الذي قدموه لنا ليس هو الواقع. ذلك أن

(1) Beaux arts magazine, n 372, juin 2015

البيغ داتا عندما تسنن العالم، إنما تضع شاشة بيننا وبين الواقع تقوم بغربلة انفعالاتنا، تلك الإفرازات الإنسانية غير الخاضعة للنمذجة التي تجعل سلوك الإنسان، في السراء والضراء، غير متوقع، على عكس ما يحدث في الحاسوب. ها هي مقولة الأصالة تتبخر، هي التي كانت قيمة أساسية عند اليونان القدامى، فالأصالة عندهم هي أن يعرف المرء نفسه، وأن يقبل بوعي الوجود كما هو. وها هو الزيف يحل محل هذه الأصالة، إنه زمن المُزيف حيث لا شيء أصيل، لا الديكور ولا الذات. ومن أعراض هذا الانحراف ولدت في 21 ماي 2011 في مصر فتاة أطلقوا عليها فايسبوك.

إن إغراق المجتمع في الافتراضي يقلص من حجم الواقع. فربط المرء اليوم علاقة في مواقع اللقاءات مع عشيقته أو عشيقها دون أي لقاء جسدي يمكن أن يقع تحت طائلة القانون، ويُنظر إليه باعتباره زنى في حالات الطلاق. وقد يكون فك الارتباط مع الواقع أشد وقعا مع انتشار السماعات الموجهة إلى الجمهور العريض. فكل الصناعة التكنولوجية التي ترغب في الاستحواذ على سوق الفيديو تبحث عما يغرقنا في عوالم مصطنعة يكون من الصعب تمييزها عن العالم الواقعي. وقد أنفق فايسبوك مليارين من الدولارات من أجل تطوير سماعته الخاصة التي أطلق عليها أوكولوس ف ر. ففي الفيلم الاستباقي ماتريس Matrix الذي عُرض في القاعات سنة 1999 يكتشف البطل، وهو شاب متخصص في المعلوميات، أنه يعيش ضمن "مصفوفة"[1]، ويتعلق الأمر بكون افتراضي تصورته الحواسيب. "إن الواقع وهم، إنه

(1) مصفوفة matrice لوحة أو سجل يتضمن كل المعطيات كما هو الحال مع البرامج المعلوماتية (المترجم).

ليس ما هو موجود، بل ما يلتقطه الذهن"، بذلك شرح القضية في مارس 2015 منسق برنامج أوكولوس لمصممين محليين. فالغاية المعلن عنها لهؤلاء المبتكرين هي أن يجعلونا نعيش في "مصفوفة". فهل يُعد الواقع الافتراضي شكلا من أشكال الاستلاب؟ فعندما ننفصل عن الواقع، وهو العالم الذي تدركه حواسنا كما يحدده الإغريق، فإننا ننفصل عن أنفسنا. إن ضياع مادة الواقع الذي قادت إليه الرقمية يشكك في مفهوم الشخصية ذاتها. وذاك ما يعيشه بعض المدمنين على الألعاب الإلكترونية الذين يُسقطون ذواتهم الرقمية في شكل بديل في أكوان ثلاثية الأبعاد، فهم لا يعرفون بالضبط من هم. إنهم يتنازلون عن اختيارهم الحر عندما يفقدون فرادتهم، ومع ذلك يفقدون كل إرادة على الإفلات منها. إنهم شبيهون بأسرى الكهف الذين كانوا مستعدين لقتل كل من يحاول تخليصهم من أوهامهم. وأكثر الأوهام نعومة هي تلك التي تأتي من المجانية.

فجريا وراء الوعد الزائف القائل "بإمكاننا الحصول على كل شيء في الأنترنيت بالمجان"، فإننا نندفع نحو الكهف حيث ننتهي محاصرين كما كان حال الأطفال الذين سحرهم صاحب الناي في حكاية الإخوة جريم. والحال أنك "إن لم تدفع ثمن شيء ما، فأنت لست زبونا بل أنت منتَج"، كما يقول المثل. إنه الثمن الذي يجب دفعه. فعندما ندخل الشبكة، نعقد، دون علمنا، ميثاقا مع الشيطان: هويتنا الرقمية مقابل خدمات الولوج المجاني الذي يكشف عن كل شيء فينا. ويجب القول إن القيمة التجارية للشخص 2. 0 والآن 3 .0[1]، لا

(1) يرمز التعبير 2.0 إلى المرحلة 2 ضمن تطور الشبكة أما 3.0 فهي المرحلة اللاحقة.

تكمن في قوة عمله، بل في هويته الرقمية التي تُباع عدة مرات، كما كان يفعل ذلك الناس في سوق النخاسة. وقد أعلن ذلك صراحة إيريك شميدت، رئيس المجلس الإداري لغوغل في كتاب عنوانه: نحن من سيكتب المستقبل: "ستكون الهوية عند مواطن الغد هي أغلى المنتجات، ولن يكون لها وجود سوى في الشبكة. إن سلطة ثورة المعطيات هي: مقابل كل مظهر من مظاهرها السلبية هناك خير كثير"[1]. بعبارة أخرى، إن المبحرين المنتجين الطوعيين للمعطيات مستغلون، ولكنهم سعداء بهذا الاستغلال.

فعندما نتصل نعتقد أننا مستقلون وأحرار، في حين أننا خاضعون للآلة، ذلك أن التواصل داخلها يخضع لقواعد، والإرساليات موجهة والعلاقات الاجتماعية مبرمجة. فما يرسم لنا حدود هوياتنا الرقمية هو اللوغاريتم. وهكذا عندما نفتح حسابا في الفايسبوك نقوم بملأ مطبوع عام يصف شخصيتنا. يتم تبسيط نظيرنا الرقمي، إنهم يُخضعونه لعملية تقليص لكي تستطيع المصفوفة ابتلاعه وهضمه. وقد كَبَّ مجلسُ الدولة[2] مؤخرا على هذه القضية في تقرير مخصص للرقمية والحقوق الأساسية. وقد كتب قضاة بالي روايال في سبتمبر 2014: "لا يرى المبحر اليوم نفس نتائج البحث التي يراها مبحر آخر. ولا يرى الإشهارَ ذاته ولا المقالات المودعة في بوابة للإبحار، ولا يتوفر على العروض التجارية نفسها التي يتوفر عليها جاره. وهو ما يستثير الكثير من القضايا الخاصة بالحصول على

---

(1) Eric Schmidt et Jaret Cohen , Denoel , 2013

(2) مجلس الدولة في فرنسا (المترجم)

المعلومة". فعندما لا يقترح اللوغاريتم على المبحر سوى مقالات وفيديوهات أو مواقع تتناسب مع ذوقه، فإنه قد يُغلق عليه في دائرة ضيقة. يتعلق الأمر بنتائج مناهضة كليا للروح الأصلية للشبكة، التي كان من المفترض، وهي تمد لنا خطوطا متشابكة، أنها ستوسع من معارفنا... وهكذا سينهار وهم وجود شبكة محايدة، تلك التي هلل لها عمالقة النيت. وقد جرب لانتانا سويبر Lantana Sweeper الحياد المزعوم للحسابات المحايدة. فعندما كتب هذا الأستاذ في هارفارد اسمه ولقبه في غوغل ظهر إشهار خاص بالمقاضاة يقترح عليه الاطلاع على سجله الجنائي. لماذا أوحت هذه النتيجة بأنه قد يكون موضع مساءلة قانونية؟ لسبب بسيط هو أن اللوغاريتم اعتقد أن الاسم لامرأة إفريقية أمريكية، واستنتج بأنها من المحتمل أن تكون لديها مشاكل مع العدالة. فاللوغاريتمات ليست فقط غير محايدة، إنها تتضمن أحكاما عنصرية أيضا[1]. إن الحياد المعلن عنه أمر مستحيل في واقع الأمر، ذلك أن هذا الكون الرقمي مسنن لصالح البيغ داتا. وقد دعا مجلس الدولة في ختام تقريره، إلى "خلق حق في اللوغاريتمات".

لقد وُضعت المفاتيح بين أيدي الشركات الكبرى لكي يتم تسنين العالم الذي نتحرك داخله. يتعلق الأمر بسلطة لا حد لها، فداخل هذا الفضاء الرقمي يعد السنن هو القانون. وقد عبر لورانس ليسينغ في يناير 2000، وهو أستاذ مرموق، على صفحات مجلة هارفارد قائلا: "إن السنن يولد نوعا من القيم. إنه قد يكون ضمانة

(1) Frank Pasquale, The black box socity, Harvard University, Press 2015

على بعض الحريات، أو صادا عنها. إنه قد يحمي الحياة الخاصة، ولكنه قد يكرس الرقابة. إن السؤال الوحيد هو معرفة هل يمكن أن نقوم بدور موحد، أم سنترك المجال للمسننين يختارون لنا قيمنا". إن الوهم الكبير هو الاعتقاد، كما يوهم بذلك أسياد المعطيات، أن الحرية يضمنها السنن، لذلك لسنا في حاجة إلى قوانين تحميها.

لقد باعونا وهْما كبيرا لكي نظل دائما داخل الكهف: هو أننا لن نكون أبدا وحدنا، لأن الشبكة ستجمعنا بآخرين. إلا أن العكس هو الذي حصل. وقد عبر الأنتروبولوجي الأمريكي شيري تورك عن ذلك قائلا في كتابه: "وحيدا ضمن المجموع"[1]: "يعطينا الغُلو في الاتصال إحساسا أننا متصلين خارج الحدود والثقافات واللغات... والحال أننا منغلقين على أنفسنا كل في كون افتراضي منفصل عن العالم". نحن بالفعل جميعا، ولكننا وحدنا. وعلى عكس المظاهر، فإن الاتصال لم يكن وراء ميلاد تضامن جديد. فعدا بعض الاستثناءات، سيظل كل واحد في قارورته، وحيدا. وقد لوحظ في اليابان منذ سنوات ظهور نوع من المرض الاجتماعي. هناك مراهقون أو شباب يمكثون في منازلهم متصلين باستمرار بحواسيبهم ويطلق عليهم "هيكيكوموري"[2] (المتخندقون). ويتحدث السوسيولوجي دومينيك فولتون Dominique Volton وهو صاحب كتاب "العولمة الأخرى"[3] عن "استلاب الاتصال"، ذلك أن هؤلاء الأشخاص عاجزون عن العيش خارج هذا العالم الافتراضي، والحال، كما يذكر بذلك، أن

(1) Alone Together , Sherry Turkle , MIT Press 2011
(2) hikikomori
(3) Fammarion , 2003

الأساسي عند الإنسان ليس هو الصورة بل الإحساس بالواقع".

يميل الفرد شيئا فشيئا إلى التقوقع، وينكفئ على نفسه، كما لو أنه ثقب أسود تتحلل داخله الغيرية، ولهذا وقع رهيب. فقد نخسر بذلك جزءا من إنسانيتنا. فالإنسان عند ولادته يكون بالغ الهشاشة، فذهنه لم "يكتمل بعد". وهذا الضعف هو سر قوته، ذلك أن ذهن الكائن البشري يكبر ويغتني في تفاعله مع محيطه ومع الآخرين. ولقد كان خلاصه دائما أن يكون مع المجموع. إن قوته مستمدة من المجموعة. والحال أن التضامن، ذلك العنصر المكون للإنسانية، سيختفي تحت وطأة ضربات فردية مغال فيها تدعمها الشركات الكبرى للبيغ داتا. وكان بعض الأساتذة قد لاحظوا تزايد عزلة التلاميذ الذين ينغمسون في عالم مخيالي بعيدا عن الواقع ومشاكله الجماعية غايتهم الوحيدة أن يكونوا وحدهم ويلعبون. وما ينتج عن هذه العزلة هو "هوس سيكولوجي" متزايد يبدأ من البارانويا وينتهي بالعصاب الاستحواذي[1]. ومن المعروف أن هذا الداء الأخير هو آلية من آليات الدفاع ضد الانهيار العصبي الذي يهدد الكثير من الشباب، دون أن نتحدث عن الكبت المتزايد وفقدان التعاطف المشار إليه، وهو الذي يجعل الفرد عاجزا عن تقدير حجم العذاب الذي يولده العنف، وقد يقود ذلك إلى الفعل. وهذا ما يحدث في الولايات المتحدة مع المذابح المتكررة التي يقوم بها "متقوقعون" على أنفسهم.

---

(1) evrose obsessionnelle: اضطراب نفسي يتمثل في وجود أحاسيس وأفكار تستولي على المرء وتزج به في صراع وقلق (المترجم)

الميثاق

"إن الشعب الذي يتنازل عن جزء من حريته مقابل شيء من الأمن، لا يستحق لا الحرية ولا الأمن، وسيخسرهما معا"[1].

منذ عشرين سنة تعرض رولان مورينو صاحب شركة Gemplus غامبلوس، ومبتكر البطاقة البنكية، لحادثة سير في الطريق خارج المدينة. وبعد أن قضى أسابيع في الكوما تلتها فترة نقاهة طويلة، سيقبل بعد معارضة شديدة استثمار أموال أمريكية توجهها cia في شركته التي كان هو أحد مؤسسيها. وحصلت الولايات المتحدة على ما كانت تبحث عنه، لقد هيمنت على الرائد العالمي لتسنين المعطيات، وهو أكبر مصنع للبطاقات سيم SIM. وقد كشفت في فبراير 2015، the intercept، وهي جريدة للتحقيقات في الشبكة سبق أن نشرت التصريحات المدوية لإدوارد سنودن عن التجسس الأمريكي، أن ناسا ونظيرتها البريطانية GCHQ قد سرقتا من غامبوس، التي أصبحت تسمى بعد ذلك غيمالتو، كميات هائلة من مفاتيح الترقيم للبطائق سيم. فقد كانت مصالح الاستعلامات تستعيد بسرعة مفتاح حل التسنين الموجود في كل شريحة يقتنيها زبون ما،

---

(1) Benjamin Franklin بنجامين فرانكلين 1755

حتى ولو كان الأمر يتعلق بفاعل في الاتصالات. وقد مكنتهم هذه السرقة من التجسس بكل سرية على أسطول الهاتف لـ 450 فاعلا كانوا يستعينون بغيمالتو في 190 بلدا.

لقد أدركت الآلة الاستخباراتية الأمريكية في نهاية التسعينيات ضرورة التمكن من دائرة الأخبار التي ستمر عبرها في المستقبل كل المعلومات الأساسية على مستوى المعمور كله. فكان أن أطلقت مخططا للعمل سُمي" معلومة/هيمنة"، وذلك من أجل مضاعفة الجسور مع المؤسسات الرقمية. وهكذا خلقت CIA صندوقا للاستثمار في in-q-tel مكلفة بالبحث عن أدوات من قبيل محركات البحث وبرمجيات الإبحار المجهول. ويتعلق الأمر أيضا بالتحكم في تكنولوجيات البطائق ذات الشريحة، فهي أساسية للأداءات البنكية أو الهاتف المحمول. لقد سارع الأمريكيون عندما دخلوا إلى غومبلوس إلى تعيين رئيس سابق لـin-q-tel على رأس الشركة، وفي هذه الفترة تأسس ميثاق بين مصالح الاستخبارات وبين ما سمي حينها التكنولوجيات الجديدة للمعلومات والتواصل. فهذه "التكنولوجيات الجديدة في المعلوميات والتواصل"[1] هي التي ستكون وراء ميلاد البيغ داتا.

وقد تسارعت هذه الطفرة التي جعلت من الأنترنيت اليوم المصدر الكوني لمراقبة الفرد بسبب حدث وقع بعد سقوط جدار برلين كانت له صلة بالعلاقات الدولية وبأميركا خاصة، الدولة التي

---

(1) NTIC Nouvelles Technologie d'Information et de Communication التكنولوجيات الجديدة في المعلوميات والتواصل. وتتضمن كل الأدوات الموضوعة رهن إشارتنا في ميدان التواصل والسمعي البصري والأنترنيت (المترجم).

نصبت نفسها أكبر داعية للسلام على المستوى الكوني بشعارها الذائع الصيت: "أن نجعل من العالم مكانا آمنا"[1]. فتحت غطاء إيديولوجي صاحبته حملة تواصلية محبوكة أعلنت أمريكا عن نفسها بفضل ترسانتها العسكرية، دركيا للعالم ومناهضة لكل الانحرافات الرامية إلى المس بمصالحها. فبعد أن سقطت الشيوعية سيظهر شكل جديد غير منظم من المقاومة سيقف في وجه هذه الهيمنة، وسيكون ذلك في المنطقة التي تحتضن جزءا كبيرا من الطاقة، أي الشرق الأدنى والأوسط. فقد خلقت الولايات المتحدة بنموذجها الاقتصادي القائم على "الانطلاق من خلال الحرب" وفق تعاقب مدروس، اختلالا دائما في هذا الجزء من العالم، وتتحمل جزءا من المسؤولية مع أمم غربية أخرى في هذا التقاطب الديني، وقد أصبح اليوم ذريعة لتوافد عصابات إجرامية منظمة على العراق وسوريا. فبينما كان الصراع بين الرأسمالية والشيوعية قائما استنادا إلى وجود كتلتين متمايزتين جغرافيا، فإن الإرهاب تطور انطلاقا من ديانة واسعة الانتشار، حتى وإن كان الشرق الأوسط هو مصدرها.

في هذا السياق، أدهش انهيار البرجين في نيويورك في 11 سبتمبر 2001 أمريكا كلها، أكثر مما فعله هجوم بيرل هاربور[2] في ديسمبر 1941. فقد وقع الحادث الأخير بعيدا عن قارتها وكان متوقعا في جميع الحالات. لقد تحولت هذه المأساة سريعا إلى

---

(1) Make the world a safer place

(2) pearl Harbour هجوم جوي وبحري ياباني على قاعدة بحرية أمريكية في بيرل هاربو في أوياهو هواي في 7 ديسمبر 1941. وقد اعتبر هذا الحدث "كارثة وطنية" المترجم).

إهانة. لقد أصيبت أمريكا لأول مرة على ترابها في قلب آلتها المالية الدولية، وهي رمز قوتها. لقد كان الفشل كبيرا، فـ ابن لادن، وهو العقل المدبر للعمليات الإرهابية، هو من إنتاج CIA فهي التي أعدته لقتال القوات السوفيتية في الجبهة الأفغانية. فإذا تركنا جانبا الأطروحات التي تزعم أن الولايات المتحدة غضت الطرف عنه لكي تهيئ رأيها العام ليتقبل حروبا جديدة، فلن يبق هناك من تفسير لهذه الدراما سوى الفشل الذريع لمصالحها الاستخبارية. وستستغل ذلك FBI وCIA وخاصة الناسا التي اتهمها البيت الأبيض بالتقصير، لكي تحصل على وسائل تكنولوجية كبيرة بغاية الاستيلاء على المحيط الرقمي. وفي الوقت ذاته عرفت الشبكة ازدهارا حاسما على المستوى العالمي، فقد وصل عدد المتصلين إلى ثلث سكان الأرض. لقد كانت الغاية هي خلق مراقبة شاملة. لم يعد الأمر يتعلق بمجموعة من الأفراد يجب معرفة كل شيء عنهم، بل هي الرغبة في التجسس على الكوكب الأرضي كله، وبعد ذلك غربلة هذه الكتلة من المعلومات. كانت هذه الغاية تلتقي، بما يشبه الأعجوبة، مع التكنولوجيا التي طورتها البيغ داتا. فبحث بسيط في غوغل يعطيك في ثوان من المعلومات ما كان يتطلبه قديما إرسال الإنسان إلى القمر. فبفضل هذه اللوغاريتمات المركبة، وبفضل أنظمة السهر والتحذير، كانت المصفوفة قادرة على التعرف على الأفراد أو السلوك المشبوه. وقد ظهر منذ تلك الفترة مفهوم قدمه "الملك ألكساندر"، كما يلقب في الولايات المتحدة. فقد أشاع الجنرال كاين أليكساندر، الذي كان مسؤولا لمدة تسع سنوات على الناسا قبل أن يترك منصبه في 2014، استعارة "حزمة القش": "يجب مراقبة كل الحزمة للحصول على إبرة". وقد أشار مؤخرا بيرنار باربيي،

وهو المدير التقني السابق للاستخبارات الخارجية، إلى حكاية لقائه سنة 2007 مع الجنرال الأمريكي أليكساندر: "قال لنا، بعد الانتهاء من تناول وجبة جيدة (...)، بين الحلويات والقهوة: "غايتي هي التنصت على أنترنيت العالم"، وأتذكر أنهم نظروا إليه قائلين: "وكيف ذلك؟" فعلق الجاسوس الفرنسي السابق على ذلك: "يبدو أن الأمر كان إراديا منذ 2007، كما أثبتت ذلك قضية إدوار سنودن، وأن الناسا كانت لها القدرة على التنصت على كل الناس، وأن الأمريكيين وضعوا جهازا للتنصت المعمم"[1]. وقد أسهمت اعترافات سنودن في تفجير الدائرة الأمنية safe Harbor[2]، ذلك القرار الذي اتخذته بروكسيل القاضي بأن يُؤذن للبيغ داتا بنقل المعطيات الشخصية للمبحرين الأوروبيين نحو الولايات المتحدة. وفي فبراير الماضي، تم توقيع اتفاق آخر بين الاتحاد الأوروبي والعم سام بذريعة ضمان سرية المعطيات المودعة في التراب الأمريكي.

وكان "الصراع ضد الشر" و"الحرب على الإرهاب" مجرد شعارات. وكانت الرقابة العالمية وسيلة فقط. وقد رصدت لذلك أموالا طائلة من أجل التنصت على المكالمات الهاتفية في العالم، وقراءة كل الرسائل الإلكترونية المتبادلة في الأنترنيت، والارتباط بكل كاميرات المراقبة. حينها لم يعد ممكنا أن يمر أي اتصال يهدف إلى تبليغ معلومة دون أن تلتقطه الناسا، فهي تقوم بمعالجته

(1) Cyberattaque: Beaucoup de pays se font passer pour des chinois» libération, 22 septembre 2015

(2) save Harbor "الدائرة الأمنية" ويتعلق الامر بقرار اتخذه الاتحاد الأوروبي يقضي بنقل المعطيات الشخصية لأوروبا إلى الولايات المتحدة، فهذا البلد يتوفر على الضمانات الكافية لحماية الحياة الخاصة. (المترجم)

وتخزينه وفق معاييرها الخاصة. ويمكن أن نذكر الكثير من التفاصيل حول طريقة هذه الوكالة في تنظيم التنصت. ويكفي أن نشير إلى أن كل الاتصالات تمر اليوم عبر الأنترنيت، وأن الناسا تتصل بالألياف البصرية التي تحمل المعلومة. فمهما كان مصدر هذه المعلومة أو وجهتها، فإن هذه الألياف تمر في لحظة ما بالولايات المتحدة.

وقد يكون مصدر هذا الطموح الجنوني الذي لم يجرؤ أورويل على تخيله هو وجود حدث تراجيدي استثار عند الناس بارانويا دائمة مع تطور نظام تكنولوجي للمعلومة تغذيه قفزة تكنولوجية في القدرة على تخزين المعطيات. فقد أرسى هذا الطموح أسس دكتاتورية ناعمة حيث يكون على كل فرد، دون إشعاره بذلك، قبول أن يكون كيانه كله أو جزءا منه مكشوفا أمام نظام للرقابة الكونية. وقد سهل سقوط جدار برلين مأمورية تحول الآلة الأمنية الأمريكية. وقد شرح ذلك بيرسي كامب، مستشار جيوستراتيجي وخبير في قضايا الاستخبارات: "لقد قايضت المصالح الاستخباراتية عدوا صريحا، الكتلة السوفييتية، بتهديد دائم لا يمكن عقد هدنة معه، أو التوقيع على سلم. وبما أنه تهديد غير محدد بطبيعته، فإنه يبرر كل الوسائل الاستثنائية الدائمة التي تستهدف تحييده أو القضاء عليه"[1].

إن هذه المراقبة الشاملة للكائن البشري، ومراقبة كل ما ينتجه من معلومات ليست مجرد مشروع، بل هي واقع يُبنى بسرعة جنونية في تحد سافر لمقولة الحدود ولكل حماية شرعية، ولقد أصبح الآن مستحيلا الوقوف في وجهها. الوحيدون الذين يمكنهم القيام

(1) entretien du 13 novembre 2015

بذلك هم أنفسهم من صنعوه ويروجون له. لقد عقد أسياد البيغ داتا روابط متينة مع أوساط الاستخبارات بدعوى وجود إطار شرعي، إذا كان موجودا في حده الأدنى في أمريكا، فإنه منعدم في بقية دول العالم حيث لا تشعر الناسا بأنها تواجه أي مقاومة. وتبدو أوروبا خاصة عاجزة عن الوقوف في وجه هذه الهيمنة الأمريكية في مجال المعلومة، فهي لن تكون في المستقبل سوى قوة من درجة ثانية، إنها مستلبة بتبعيتها.

للاستخبارات والبيغ داتا مستقبل مشترك، يكمن في تشكيل تحالف قوي في هذا القرن في مجال جمع المعلومة العالمية ومعالجتها. وهكذا تم تهجين الجزء الأشد قوة في جهاز الدولة الأمريكية. إن أهمية الاستخبارات في تاريخ الديمقراطية الأمريكية صريح في هذا المجال. لقد تصرفت الاستخبارات الأمريكية دائما كحارس للهيكل. ولقد كان اغتيال كينيدي سنة 1963 نتيجة مباشرة لذلك. فالناس يتفقون اليوم على أن هذا الاغتيال كان مؤامرة شاركت فيها المصالح السرية والمصالح العسكرية وفي درجة أقل المافيا. ومع ذلك، وعلى الرغم من مرور كل هذا الوقت، فإن قانون الصمت حول هذه القضية مازال سائدا، وذلك لسبب بسيط: إنه يقدم الدليل على محدودية الديمقراطية في أمريكا، حيث المصالح فوق المؤسسات. وهذا ما تأكد بعد 11 سبتمبر مع توقيع باتريوت أكت patriot Act[1] الذي تنكر، باسم مكافحة الإرهاب،

---

(1) patriot act يمكن ترجمته انطلاقا من الفرنسية بالعبارات التالية: "قانون من أجل تدعيم أمريكا بتوفير الوسائل المناسبة من أجل التعرف على الإرهاب ومحاربته". ويتعلق الأمر بقانون مضاد للإرهاب صوت عليه الكونغريس الأمريكي في أكتوبر 2001 (المترجم).

للكثير من مبادئ الديمقراطية الأمريكية، وتأكد أيضا مع كذب الدولة الذي شرَّع الحرب الثانية على العراق. ألم يؤكد جورج بوش أمام مجلس الأمن للأمم المتحدة، استنادا إلى وجود دلائل مزعومة قدمتها المصالح الاستخباراتية، أن عراق صدام حسين تربطه علاقات وثيقة مع القاعدة، وبذلك، فإنه يهدد أمن الولايات المتحدة ويمتلك أسلحة دمار شامل؟

إن تداخل المصالح بين البيغ داتا ووكالات الاستخبارات حقيقة لا يمكن إنكارها. وكما أكد ذلك إدوار سنودن، فإن الولايات المتحدة استولت على معطيات بلدان أجنبية، لأن هذه المعلومات كانت مودعة في خواديم[1] مؤسسات خاصة أمريكة، وأن الناسا تتحكم كليا في استغلال هذه التكنولوجيات. وقد وقعت اتفاقيات مغرية تربط بين صناعة الهاي تيك وبين جهاز الاستخبارات. ففي فبراير 2013 وحدها حصلت شركة بوز ألين هاملتون[2] التي كانت آخر مشغل لسنودن، على 11 مليار دولار من وزارة الدولة في الأمن، وهو ما يوازي مرة ونصف الميزانية السنوية لوزارة العدل الفرنسية. إن مصدر 98 في المائة من رقم معاملات هذه المؤسسة في فيرجينيا هو الحكومة الأمريكية نظير خدمات مرتبطة أساسا بميدان الاستخبارات. أما ما يخص نصف ال 25000 من موظفيها، فإن ذلك يدخل ضمن أسرار الدفاع. وتقع بوز ألين هاملتون منذ 2009 تحت سلطة مجموعة كارليل، أحد أكبر صناديق الاستثمار في العالم بـ 150

---

(1) serveurs خواديم جمع خادوم

(2) Booz Allen Hamilton بوز ألين هاملتون شركة أمريكية للاستشارة التسويقية، مقرها فيرجينا (المترجم).

مليار دولار، ولا يتردد البعض في اعتبارها "بنك CIA". ويضم المجلس الإداري لهذه المؤسسة في صفوفه فرانك كارلوتشي النائب السابق لمدير CIA الذي سيصبح لاحقا سكرتيرا في الدفاع أيام جورج بوش، الذي كان هو أيضا عضوا في مجلس الإدارة هذا. فعن طريق صندوقه كابيتال ريسك، IN-Q-TEL ستكون CIA أيضا هي الممول الرئيس لبالنتير تكنولوجي palantir technologies المتخصصة في تحليل الميغا معطيات. لقد صممت هذه الشركة السرية التي أنشأها سنة 2005 بيتر ثيل، أحد المقاولين الأكثر نفوذا في وادي السيليكون، لوغاريتمات خاصة بـ NSA وCIA و FBI. ويقدر رأسمالها اليوم بـ 15 مليار دولار. وللتذكير ، فإن "بالانتير" palantir هو الاسم الذي أعطاه تولكيون Tolkien لتلك الأحجار التي تمكن من التكهن بالمستقبل في أمير الحلقات le seigneur des anneaux[1].

فقبل أن يغرق الجهاز الاستخباراتي ممثلي التكنولوجيا بالعقود، كان رواد الإعلاميات قد تلقوا إعانات من البينتاغون فبدونها لم يكونوا ليوجدوا أصلا. والأنترنيت نفسه هو من ابتكار الجيش الأمريكي. فأثناء الحرب الباردة كانت داربا Darpa، وهي الوكالة التابعة للبنتاغون ومهمتها هي التحفيز على التجديد في مواجهة التهديد السوفييتي، تُنسق من أجل خلق نظام للتواصل يمكن تفكيك بعض فروعه دون المس بوحدته، وذلك من أجل مقاومة

---

(1) le seigneur des anneaux أمير الحلقات، وهو مسلسل أمريكي مستوحى من رواية ر تولكيين يروي تفاصيل عالم تخيلي غاية شخصياته هي البحث عن الحلقة المركزية وتدميرها (المترجم).

أي كارثة نووية. وهكذا سيرى مشروع أربنات Arpanet، سلف الأنترنيت، النور سنة 1969. ويوضح بيير بيلاني صاحب سكيروك skyrock[1] في كتابه "السيادة الرقمية"، وقد كان أول من خلق في فرنسا شركة لخدمات الأنترنيت: "لقد كنا مندهشين أمام الشركة التي تكون قد ولدت في ورشات عادية، ولكننا ننسى أن الورشة كانت في واقع الأمر حاملة طائرات"[2]. فبقدر ما تنفق الدولة من أموال على المصالح الاستخباراتية، بقدر ما تستفيد شركات البيغ داتا من ذلك. فعندما أذن البتريوت أكت ل NSA وCIA الاستعانة، باسم المس بالأمن الوطني، بالمؤسسات الخاصة الأمريكية التي كانت في حوزتها معطيات رقمية، قام غوغل في هذا الإطار بمراقبة بين 1000 و2000 حساب سنويا بطلب من وكالات الدولة.

فإلى أي حد وصل التعاون بين الجهاز الأمني والبيغ داتا؟ يعتقد البعض أن سر اختراع جهاز لنوع من آبل سمارتفون يصعب استخراج بطاريته: "يكمن في أن رد الفعل الأول لأولئك الذين يخافون من أن يكونوا موضوع تجسس، سيكون هو نزع البطارية من المحمول. فالطاقة المتبقية من البطارية تُمكن من فعل أشياء كثيرة"، وهذا ما قاله أحد رجال المخابرات الفرنسية. وقد كشفت الأسبوعية الألمانية دير شبيغل، منذ سنتين، استنادا إلى وثائق، أن الناسا كانت قادرة على التسلل إلى المعلومات الموجودة في الأيفون. فقد مكن برنامج التجسس دروبوتجيت dropoujeet الوكالة منذ 2008 من تحميل ملفات مودعة في السمارتفون، والاطلاع

(1) skyrock محطة إذاعية ف م فرنسية تذيع أغاني الراب (المترجم).
(2) Stock, 2014

على الرسائل القصيرة والعناوين والأجندات والاستماع للإرساليات الهاتفية، بل وتشغيل السماعة والكاميرا. وسارعت آبل إلى تكذيب ذلك، ونفت "أن تكون قد اشتغلت مع الناسا من أجل خلق باب سري في منتجاتها". ومن أجل الحفاظ على ثقة زبائنها، رفضت شركة التفاحة، منذ ذلك الحين، مد قاضي فدرالي، بطلب من FBI، بكلمة السر للأيفون الذي كان في ملكية الزوج الإرهابي في سان بيرناردينو في كاليفورنيا. ويعتقد بعض الخبثاء أن هذا الموقف الجديد الذي أحدث ضجة إعلامية هو مجرد طريقة عند آبل من أجل تحسين صورتها التي لطختها الاكتشافات حول "التواطؤ" بين جهاز المخابرات الأمريكية والبيغ داتا الذي أصبح ممكنا بسبب عملاء مندسين، أو اتفاقات سرية. ومن جانبها ستستغل الوكالة القوية الناسا، التي تملك القدرة على التسلل إلى الحواسيب والهواتف، هذه الفرصة لتجعل هذه الممارسة أمرا مباحا، وهي تفعل ذلك بطرق غير شرعية على خلاف FBI، الشرطة القضائية. لا أحد يشك في حجم خط الأنابيب الذي يربط بين عمالقة الرقمية بالمصالح السرية. وبعد أن رفع إدوار سنودن جزءا من الغطاء عن ذلك، أصبحت الإدارة الأمريكية تفعل كل شيء من أجل إقناع الناس بجدوى هذا التعاون. فلا يجب أن تشكك هذه الفضيحة في "الميثاق". فمنذ فبراير 2015 تقوم وكالة "السبرانية الأمنية"[1] بتنظيم عملية تقاسم المعطيات بين الشركات التكنولوجية ومكاتب الأمن. وقد حاول عمالقة الرقمية، الذين وجدوا أنفسهم في وضعية غير

---

(1) Cybersécurity

مريحة تجاه مستعمليهم، التمويه على ذلك من خلال الإيهام بوجود صدام بينهم وبين الآلة الأمنية الأمريكية، بل طالبوا أيضا بنصيبهم في مكافحة الإرهاب. وكان غوغل قد جعل من نفسه حصنا ضد "تطرف" الشباب. ففي يونيو 2011، إبان مناظرة حول العنف المتشدد الذي نظمته هذه المؤسسة في إيرلندا، أكد إيريك شميدت، رئيس مجلسها الإداري، أن البيغ داتا تمتلك "أكثر الاستراتيجيات قوة" ضد التطرف. يتعلق الأمر بالصناعة التي تنتج في الوقت نفسه ألعاب الفيديو والشبكات الاجتماعية والهواتف المحمولة، فهي تعرف أكثر من غيرها كيف تُسلي شباب كل القطاعات، والشباب هو بالضبط الساكنة التي يستهدفها الإرهاب، كما شرح ذلك. ربما لا تعرف هذه المؤسسات كل تفاصيل التطرف أو كل الاختلافات الموجودة بين بعض الساكنة المخصوصة والحاسمة، كما هي ساكنة اليمن والعراق أو الصومال، ولكنها تفهم بالتأكيد الشباب وتعرف نوعية الألعاب التي يرغبون فيها"[(1)]. وقد وظفت مؤسسة مونتين فيو إطارا قديما في الوزارة متخصصا في مناهضة التطرف ومناهضة الإرهاب وذلك من أجل خلق خلية للتفكير حول الموضوع، هي أفكار غوغل Google Ideas.

تكمن المفارقة، كما رأينا ذلك، في أن مؤسسات البيغ داتا مندمجة رغم أنفها في ميكانيزمات الإرهاب. إن العملية الإرهابية الناجحة هي تلك التي تُحدث أكبر قدر من الآثار في الأذهان بأقل جهد ممكن. والحال أن للأنترنيت وقع الصدى. فالمعلومة تنتشر

---

(1) Les Echos, 30 novembre 2015

داخله وتتضاعف بطريقة مدهشة، وتتسلل بشكل نهائي إلى الذاكرة الرقمية. فبقدر ما يكون الانفعال المنشود قويا، بقدر ما تستعيد الآلة الاستخباراتية وسائل مالية ستستفيد البيغ داتا من جزء منها. وهكذا، فإن النظام البيئي الأمني يُغذي نفسه بنفسه.

ففي أقل من أربعين سنة أصبح ما كان يستجيب لحاجات عسكرية، في ارتباطه بالهاتف المحمول، هو النمط الأول للتواصل بين كل الكائنات البشرية. يتعلق الأمر بأعجوبة تكنولوجية تُمكن من خلق حالة اتصال آني وفي كل لحظة، وفي أي مكان. فمنذ بدايات 2000، أي منذ فترة قصيرة، أصبح الأنترنيت جزءا من وجودنا بفضائل لا تنكر في سرعة الاتصال بين الأفراد والحصول على المعلومة. ولكن أفضل التطورات التكنولوجية التي ابتكرها الإنسان كان لها دائما وجه عكسي. وفيما يتعلق بالأنترنيت، فإن آثاره الجانبية ليست مدمرة بالكامل، كما كان عليه الحال في "الشتاء النووي"[1]، ولكنه ماكر بحيث إنه يؤثر على القيم الأساسية من قبيل الحرية الفردية. لقد أعلن الخلط بين الخدمات والاستخبارات وبين المؤسسات التجارية للبيغ داتا عن ميلاد شكل جديد من الحكومة العالمية غير المنتخبة، وهذا وحده يشكل تهديدا للديمقراطية.

---

(1) «hiver nucléaire» أي ما يمكن أن يترتب عن انفجار نووي يؤدي إلى دخول الكوكب الأرضي في حالة برودة قد تقتل كل شيء عليها (المترجم).

آه يا أورويل[1] لو تدري

"ظهر مفهوم "الحياة الخاصة" مع الطفرة الحضرية التي جاءت بها الثورة الصناعية. وهذا ما يجعله حالة شاذة"[2]

فينتون سيرف

تعرف الوكالة الوطنية للأمن الناسا في أيامنا هاته عن المواطنين الألمان أكثر مما كان يعرفه عنهم جهاز ستازي Stasi[3] في زمن ألمانيا الشرقية. فهذه الوكالة الأمريكية تطلع على كل حركة وكل تبادل إلكتروني وعلى كل لحظة في حياتهم اليومية. فنحن نعرف أن هناك جاسوسا في جيوبنا هو الهاتف المحمول، ما يعادل عميلا من الستازي يسجل بدقة تنقلاتنا ويرصد هوية كل الذين نحن في اتصال معهم، ويتعرف على أصدقائنا ويمد عنقه عندما نسجل أشياء في أجندتنا أو نكتب رسالة قصيرة أو نتلقى إيمايلا أو نتصفح ألبوم صورنا في الفيديو. إنه ضابط حياتنا، ذاك الذي لا نخفي عنه شيئا. ويسمى مشغل هذا الجاسوس آبل أو غوغل اللذين يتحكمان لوحدهما

---

(1) جورج أورويل Gearge Orwell (1903-1950) كاتب وصحفي وناقد بريطاني عرف بعملين: "ضيعة الحيوانات" و"1984" والعمل الأخير هو الذي اشتهر به (المترجم).

(2) Vinton Cerf: Chief Internet Evandelist chez google, Novembre 2013

(3) satasi جهاز البوليس السري أيام ألمانيا الشرقية (المترجم)

في 90 في المائة من أنظمة استغلال كل السمارتفونات فوق الأرض.

لم ندرك بعد كليا أن العالم الذي يحيط بنا قد تحول إلى نشافة[1]. فالأنترنيت قادر على نسخ الفرد، بالمعنى الحرفي. فكل الأداءات التي يقوم بها الناس معروفة، يمكنه التعرف على حسابنا في البنك لتحديد نمط سلوكنا. فأن تكون مدينا فتلك إشارة إلى بروفايل بعينه، تماما كما هو إسرافك في النفقات. ويمكن أن نستخرج من تصرف سليم أو عشوائي في الميزانية نتائج ونبيعها إلى مؤسسات ستعرف من خلالها مسبقا ردود فعل زبناء المستقبل. لقد أدرك الفاعلون في الأنترنيت أن كتلة المعلومات التي تمر عبر مصالحهم تشكل خزانا ماليا لا ينضب، يجب فقط تنظيمه لبيعه. فقبل أن يسلم المؤمِن عقدا يخص التأمين على الموت، عليه أن يطلع على الملف الطبي للمؤمَن، ويعرف عنه كل شيء، بما فيها طريقة استهلاكه. يبدو أن معين "قرن الوفرة"[2] لا ينضب.

يجب التعامل مع كل فرد باعتباره مستهلكا لكي يستطيع العالم التجاري أن يكون قريبا من عاداته ورغباته. ويُحدد غوغل، الذي يُعتبر حاليا رقم واحد في ميدان الإشهار في الأنترنيت بـ 90 في المائة من مدخولاته، بيانات مستعمليه حسب معايير سوسيو ديموغرافية، وهي معايير مرتبطة بمراكز اهتمامنا المستخرجة من تأريخ البحث، وأيضا من مضمون تبادلاتنا في خدمة البريد داخله.

---

(1) نشافة، ويقصد بها أنها تستنسخ كل ما يودع في الشبكة (المترجم).

(2) corne d'abondance يتعلق الأمر بشيء أسطوري له شكل قرن كان يستعمله بلوتوس، وهو إله الثراء والوفرة (المترجم).

فبدعوى مكافحة الرسائل غير المرغوب فيها (spams)[1]، تقوم هذه المؤسسة بنسخ كل الإيمايلات وتحليل الكلمات المفاتيح فيها، فهذه النشافة الرهيبة تستوعب كل الآثار التي نتركها في العالم الرقمي. إنها تقوم بذلك بسهولة لأننا منحناها الإذن للقيام بذلك عندما قمنا بوضع علامة X على الخانة: "هل تقبلون بالشروط العامة للاستعمال؟" فمن يوقع يرضى بها. لقد كان الـ 270000 موظف الستازي و500000 ألف متطوع يُسوِّدون الملفات دون رغبة من ضحاياهم- لقد عُثر على 17000 كلم من الملاحظات بعد أن حُلت هذه الشرطة السياسية- أما الآن فنحن من يضع المعلومات طوعا في الملف. لقد قبل مستعملو فايسبوك، وهم مليار و400 مليون من سكان الأرض، أن يضعوا بين يدي مؤسسة مارك زاكربيرغ لائحة أصدقائهم ووضعية العشق عندهم وتاريخ ميلادهم وصورهم الشخصية أو اهتماماتهم. وبذلك، فإنهم تخلصوا من حميميتهم. فهذه المعطيات التي نقدمها في مقابل خدمات مجانية هي التي تُدر ربحا كبيرا على الرقم واحد في الإشهار على الأنترنيت.

ومن أجل التدقيق في بيانات كل زبون، يجمع فايسبوك كل المعلومات المودعة في المواقع الشريكة، وأصبح منذ فترة قصيرة، يستعمل أداة ثورية اقتناها من ميكروسوفت سنة 2013 تُمكن من اقتفاء آثار المبحرين. "أطلس" هو اسمها، وتستطيع تتبع كل فرد في الشبكة الاجتماعية، وتقوم بذلك بطريقة أحسن مما كانت تفعله

---

(1) spams يتعلق الأمر برسائل غير مرغوب فيها وعادة ما تكون بغايات إشهارية أو تضليلية (المترجم)

الكوكيات cookies[1]، أولائك المخبرون الذين عندما نُبحر في النيت يلتصقون بالعنوان IP[2] لحواسيبنا، كما تفعل ذلك المحارات على حافة الباخرة. وسيكون المستعمل هو المستهدف من "أطلس"، وهذا معناه التعرف عليه واقتفاء آثاره كيفما كان السند الذي يستعمله، حاسوبا ثابتا أو محمولا أو لوحة أو سمارتفون. وهكذا، فإن فايسبوك يقتفي آثار مليار و500 مليون من البشر أينما كانوا على النيت، ومنهم 20 مليون فرنسي. ولعشاق الكتب الرقمية أيضا مخبروهم. "فالقارئات"[3] يسجلن العادات والميولات والأماكن واللحظات المفضلة للقراءة، وكذا الصفحات المؤشر عليها والفصول التي تم القفز عليها، والكتاب الذي وُضع جانبا قبل الانتهاء من قراءته. فكل هذه المعلومات التي كانت لحد الآن مجهولة تُباع اليوم للناشرين لكي يكيفوا عروضهم مع حاجات المستهلك. والموسيقى أيضا ليست في منأى من المتلصصين. فهناك دائما مؤسسة مستعدة للدفع من أجل معرفة القطع الموسيقية التي نستمع إليها ومتى وأين. فإذا كان تويتر خدمة مجانية، فإنه يبيع بالمقابل الوصول إلى مضمون التغريدات المتبادلة داخله إلى البيغ داتا. وستفرض هذه المؤسسات استقبالا اختيار الافتتاحيات. فقد بدأ الأمريكي نيتفليكس Netflix المتخصص في النشر الدائم للأفلام في الأنترنيت ينظم جلسات "لاستماع

---

(1) cookies ملف صغير موجود في القرص الصلب للمبحر، ويضعه هناك خادوم الموقع المتصفَح، وهو الذي يمكن من التعرف على المبحر وعلى عاداته (الإشهار يستعمل هذه الملفات بكثرة) (المترجم).

(2) العنوان I P هو بروتوكول الانترنيت ويتعلق برقم يمنح في كل اتصال مع الشبكة بشكل دائم أو مؤقت (المترجم).

(3) liseuse آلة استحدثت من أجل قراءة الكتب الرقمية (المترجم).

مفضل"، والقيام بدراسات تتنبأ بعدد المشتركين في هذا المسلسل أو ذاك. إن اللوغاريتمات هي التي توفر للمنتجين لائحة الممثلين في بعض الكاستينغات[1]. والمرحلة المقبلة معروفة. فهناك ما يقارب 400 مهندس عند نيتفليكس يعملون على تطوير لوغاريتمات للطلبيات لكي تقترح على المستعمل الفيلم الذي يرغب في مشاهدته.

لا حد لعدد المعلومات، ومن هذه الزاوية تنظر إليها البيغ داتا. فالغاية النهائية هو جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الفرد حتى ولو كانت بلا قيمة، فقد يكون هناك لوغاريتم قادر على استخراج خبر ذي فائدة من حيث مردوديته المالية أو السياسية أو الاجتماعية. لقد دخلنا فعلا عصر المراقبة الشاملة. لقد "أصبحت الحياة الخاصة شذوذا"، كما صرح بذلك فينتون سيرف، أحد مؤسسي الأنترنيت والذي يشتغل حاليا لحساب غوغل. فلماذا نتباكى على اختفائها؟ إنهم يلقنونها لنا، فالقرية الكونية ليست أسوأ من القرية القديمة حيث كان الناس يعرفون كل شيء عن بعضهم بعضا، مع فارق بسيط هو أنه في قرية حقيقية يعرف الناس من يراقبهم، فمن يراقب يكون مراقبا بدوره. وفي جميع الحالات تكون هذه المراقبة الذاتية ناقصة. فلا وجود لعين تراقب الجار صباح مساء، فبإمكاننا في القرية وضع حجب لحماية حميميتنا. أما القرية الرقمية فتشبه ما يحدث في المسلسل الأمريكي: السجين[2]، ذلك أن

(1) castings يتعلق الأمر بالمقابلة التي ينظمها المخرج من أجل اختيار ممثل للقيام بدور في الفيلم (المترجم).

(2) السجين le prisonnier سلسلة إنجليزية من تأليف جورج ماركستاين تحكي قصة عميل قرر الاستقالة من عمله ليُختطف ويجد نفسه في مكان غريب بمعماره وأهله حيث يحمل السكان رقما هو هويتهم (المترجم).

التجسس غير المرئي والمكثف والدائم لا يخطئ هدفه حيث كل المعلومات ممركزة بين يدي قوة مجردة موجودة في كل مكان. والحال، ويجب أن نذكر بذلك، أن الحياة الخاصة هي تنفس ضروري. "إن الحياة الخاصة ليست هو ما نخفيه، بل هي الفضاء غير العمومي، شيء نحن في حاجة إليه لكي نقوم بعد ذلك بدورنا في الساحات العامة. إنها حيوية اجتماعيا، كما هو النوم ضرورة بيولوجية"، كما يؤكد ذلك البيولوجي جان كلود أيرسون، رئيس اللجنة الاستشارية الوطنية للأخلاق." يمكن أن تكون الشفافية المطلقة شبيهة بمحاكم تفتيش جديدة. فماذا يعني أن يكون المرء شفافا؟ معناه أن نرى من خلالك ولا نراك؟ إنهم يدفعوننا إلى الخلط بين النزاهة والشفافية. يجب أن نطرح السؤال التالي: هل وسيلتي في أن أكون نزيها هي أن أخضع للمراقبة على مدار الساعة؟ إذا كان الجواب بنعم، فهذا معناه أنهم اخترعوا النزاهة المستبدة"[1]. فإذا صدقنا ما يقوله أحد سادة غوغل، فإن كل شيء مباح. وقد نصح إيريك شميدت الناس قائلا: "إذا قمتَ بشيء لا ترغب في أن يعرفه أحد، فعليك ألا تقوم به أصلا"، "وإذا كنت لا تخفي شيئا، فلماذا تخاف أن يعرف عنك الناس كل شيء". قد يكون هذا شعار الانقلاب العسكري العالمي الذي ألغى الحياة الخاصة.

قد تعتقدون أنه لكي تفلتوا من هذه الرقابة الرقمية التي تشمل كل جزء في حياتكم عليكم فقط ألا تكونوا متصلين. خطأ. فحتى وأنت خارج التغطية تظل تحت مراقبة عين رئيس التفتيش. خاصة بفضل الكاميرات. يُمكن السمارتفون، مشغلا كان أو خارج التغطية،

(1) «Nous sommes les cousins des papillons», Le point, 1 novembre 2014

من التعرف على مكان شخص ما في كل لحظة، ومعرفة مالك الهاتف الموجود في محيطه، بل إن هذا التعرف على تنقلات ولقاءات الأفراد ستأخذ بعدا جديدا، مع التعرف الوجْهي. يفعلون ذلك بحجة تحسين الأمن، هناك عدد هائل من الكاميرات الموجودة في الأماكن الخاصة والعامة. وقد قامت الشرطة في لندن، العاصمة الأوروبية للكاميرات بـ 300000 ألف عين رقمية، بعملية صغيرة: قد يكون المواطن عرضة للتصوير 300 مرة يوميا. وشيئا فشيئا أصبحت هذه العيون الصغيرة "ذكية". فبعد أن تعلمت كيف تقرأ اللوحات المعدنية للسيارات، ها هي تعرف اليوم كيف تتعرف على وجه وسط الحشود من خلال مقارنته مع قاعدة بيانات. بل يمكنها التعرف على شبح من الخلف، وسيكون من المستحيل على المرء في المدن الكبرى التجول في الشوارع دون أن يتعرف عليه أحد. وكانت بدايات هذه العين الفائقة الإنسانية التي وضعت فوق الإنسانية هو ما يصفه الفيلسوف ميشيل فوكو في كتابه "المراقبة والعقاب"، فمختبرات البحث لوادي السيليكون تهيئ المرحلة المقبلة: كاميرات ذكية موضوعة في الطائرة الصغيرة الحضرية (الدرون).

"ولقد كتب جورج أورويل قائلا: "يمكن للحزب أن يعرف جزئيات ما تقوله أو تفكر فيه، ولكن قرارة نفسك، الغريبة حتى بالنسبة لك، ستظل في منأى عنه". والأمر ليس كذلك مع البيغ داتا، وكابوس 1984 أرحم منها. إن المصفوفة تشق سريرتنا، وتكشف عن المعنى الخفي لسلوكنا. ويعود الفضل في ذلك إلى المعطيات الأولية، تلك المعلومات التي تقول كل شيء عن واقعة

إبلاغية: التاريخ والساعة والمدة والمكان... عدا مضمونها. فهناك منتجات تقنية فرعية اعتبرتها المصالح الاستخباراتية لمدة طويلة بلا قيمة ولا تحتاج إلى تسجيل، ذلك أن ما كان يعني الآذان الكبيرة هو الكلمات التي يمكن التقاطها. إلى أن استطاعت البيغ داتا أن تعيد الجدوى لذلك المنجم من المعطيات غير المهيكلة. وكشفت عن ممكناته الخفية. فهذه المعطيات الأولية تكشف، عندما تغربلها اللوغاريتمات، أسرارا أخرى يتجاوز مضمون الرسالة الإلكترونية والإرساليات أو المكالمات المسجلة، سواء تعلق الأمر بعمليات بنكية أو معطيات موقع أو مقاطع توليدية أو ملفات المنتخبين أو مكتري شرائط الفيديو، كل هذا الكم من المعطيات المليئة بمتع الحياة لشخصيات نكرة تكشف، عندما تتم معالجتها، عن كل الهويات التي تحتضنها. لم يسبق أن كان الإنسان بهذه الشفافية وهذا العري المعروض على الناس. وقريبا لن يستطيع أحد منا أن يحيا دون أن تكون ملايين من المعلومات التي تشمل أكثر المناطق حميمية فيه قد خُزنت لكي لا تختفي أبدا. لم يتمكن أخطر الدكتاتوريين تحت أنظمة شيوعية أو فاشية من تجميع هذا الكم من المعلومات حول كل مواطن من مواطنيه. وكما تنبأ بذلك أحد مسؤولي غوغل، إيريك شميدت: "عندما نتصور المستقبل بوعوده وتحدياته، سيتبدى لنا العالم أجمل مما هو عليه الآن".

ومن أجل المزيد من التدقيق اخترعت الناسا تقنية جديدة، الكونتاكت شاينينغ[1]. سيصبح من الممكن انطلاقا من المعطيات

(1) contact chaining دعامة الاتصال (المترجم)

الأولية للهواتف المحمولة، التحديد الموضعي، الساعة ومدة المكالمة، تحديد البروفايل السيكولوجي للمستعملين واستنتاج عاداتهم وقناعاتهم الفلسفية والدينية أو أصولهم الإثنية. فهل سيكون بإمكاننا استقبالا التخلص من هذا النظام غير المسبوق؟ لم لا نتصور قريبا إمكانية تبادل مؤدى عنه لملفات الأفراد، ما يشبه السيرة المزيدة بمعلومات حول حياة الفرد الخاصة مع تحليل سيكولوجي معمق، بل أيضا بتركيب لأعماله المهنية القائمة على مراقبة عشوائية لحواسيبه طوال حياته المهنية التي ستُمكن من التعرف على نهجه ومعارفه وقياس إنتاجيته ومقاومته الجسدية والحصول على آراء كل الذين تعاملوا معه من قريب أو بعيد.

لقد سمحت الناسا لنفسها، بدعوى مطاردة ابن لادن وشركائه، الاستيلاء على صور كانت متداولة في النيت. فقد كان هناك برنامج جاسوس، يلتقط، من كل حوارات المحاضرات عبر الفيديو، خاصة سكايب، صورا بالجملة، بمعدل واحدة كل خمس دقائق، ستخضع بعد ذلك لتحليل دقيق في برمجيات متطورة للتعرف على الوجوه. والأمر كان كذلك أيضا مع صور مرسلة بالبريد الإلكتروني أو الرسائل القصيرة أو المنشورة في الشبكات الاجتماعية. وجزء هام من هذه الغلة كانت تتضمن مراسلات جنسية. واليوم أيضا لا أحد يستطيع القول كم من وجه سُرق بهذه الطريقة وماذا صُنع به.

وقد صرح إيريك شميدت قائلا: "سيصبح ضمان حياة خاصة شيئا فشيئا أمرا صعبا". والسبب في ذلك أنه "في عالم مهدد باستمرار، سيكون الشخص النكرة خطيرا". وألح بعد ذلك: "ليس

من الممكن الإمساك بهذا الإرهابي أو ذاك وهو يقوم بهذا الاعتداء أو ذاك وهو يتحرك نكرة لا يعرفه أحد". فباسم غاية مُجْمع عليها، وهي "محاربة الإرهاب"، تعزز البيغ داتا، بتعاون كلي مع الاستخبارات، من امتيازاتها. فبقدر ما تنتج من معطيات أولية وتجعل اليومي شفافا، بقدر ما تحصل على المال، وهو مصدر الربح عند الناسا. فالدفع نقدا لن يعود ممكنا في المستقبل القريب. فباستغلال الفرصة القائلة أن السيولة العينية هي مال وسخ أو يُستعمل لتمويل الإرهاب، أصبح من السهل عليهم التشجيع على التخلص من الأوراق والقطع النقدية التي تعوق تتبع آثار المال. حينها لن يكون من الممكن السفر والدفع نقدا، وسيكون من السهل أن يكون لكل شخص خريطة تحدد له تحركاته اليومية التي سيكون من الممكن تبليغها إلى مشغله أو امرأته أو عشيقته، وباختصار لكل من يؤدي مقابل هذه المعلومة. فهل من باب الصدفة أن تكون كارليل وبلاكستون، الشركتان الرئيسيتان في الرأسمال الاستثماري في العالم، في ارتباط مع مصالح الاستخبارات الأمريكية، قد قدمتا 10 مليارات دولار من أجل شراء NCR، الرائد العالمي لصناديق جمع وتوزيع الأوراق النقدية ؟

والمفارقة، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه، أن هذا العالم الذي يُقال عنه إنه أكثر أمنا لأنه غارق في مراقبة صريحة ويتسلل بلطف إلى كل التفاصيل، هو في الواقع أقل أمنا من ذلك. فلم يحدث أن تمدد الإرهاب في مناطق واسعة من العالم، كما هو عليه الحال الآن. إن الاعتماد المفرط على الوسائل التقنية وحدها يبدو الآن في الغالب بدون فعالية. وهذا ما ذكر به غريغوار شامايو، باحث

وفيلسوف في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS: "أكد مدير الناسا في يونيو 2013 أن برامج مراقبة المكالمات مكنتنا من إجهاض دزينة من الاعتداءات الإرهابية". وفي أكتوبر، نسَّب تقديره مشيرا إلى 13 "حدثا" كانت له علاقة بالإرهاب الأمريكي، لكي يعترف في النهاية أن عدد التهديدات التي تم استباقها بفضل برامج تجميع المعطيات الأولية الهاتفية كانت واحدة أو اثنين. ولن يكون هناك، في نهاية الأمر سوى عملية واحدة هي التي أُجهضت اعتمادا على عشر سنوات من تجميع مكثف للتعريفات المفصلة للمكالمات الهاتفية: أُلقي القبض على مواطن من سان دييغو لأنه أرسل 8500 دولار لمجموعة مناضلة من الصومال[1]. ففي كل اعتداء إرهابي يعزو الجهاز الاستخباراتي فشله إلى قلة الوسائل التقنية وإلى الإكراهات التشريعية، ما يعني أن المراقبة لم تصل بعد إلى حدها الأقصى. ولقد أحدثت العمليات الإرهابية في فرنسا في يناير الأثر المتوخى. لقد استفادت مكافحة الإرهاب من مبلغ مالي وصل إلى 425 مليون أورو في ثلاث سنوات، وكذا توظيف 1400 إطار في وزارة الداخلية. وكان هناك قانون كبير حول الاستخبارات صوت عليه البرلمان بسرعة يُشرع بعض الممارسات من قبيل الاستعانة ببرمجيات جاسوسة، وأجهزة للتحديد الموضعي ولاقطات للهواتف المحمولة القريبة، ووضعوا رهن إشارة الفاعلين في الأنترنيت لوغاريتمات موجهة للكشف الأوتوماتيكي عن "تهديد إرهابي". ففي عشرين سنة صوت البرلمان في فرنسا على 16 قانونا مضادا

(1) Loi sur le renseignement: Les bugs big data, Liberation, Tribune, 14 avril 2015

للإرهاب. وقد قال أحد عملاء الجاسوسية المضادة متضايقا: "نحن نبني خط ماجينو رقميا. إن نظاما حقيقيا للاستخبارات ليس من مهامه مراقبة العالم كله، بل مراقبة أشخاص بعينهم. فأن نجعل المراقبة شاملة لا يفيد في شيء في ميدان الإرهاب، نحن في حاجة إلى الذكاء الإنساني لكي نقوم بالغربلة".

فإذا كانت المراقبة تبدو جزئيا وكأنها غير فعالة كثيرا في ميدان مكافحة الإرهاب، فإنها على العكس من ذلك بالغة الفعالية في الميدان السياسي والاقتصادي. وكما كشفت عن ذلك في أكتوبر 2013 المجلة الألمانية دير شبيغل، إن الآذان الكبيرة للناسا اهتمت بالهاتف المحمول لأنجيلا ميركل لأسباب لا علاقة لها بالإرهاب. لقد كان البيت الأبيض يريد التعرف، انطلاقا من الرسائل القصيرة للمستشارة، على هوية أكثر مستشاري الظل عندها تأثيرا في أزمة منطقة الأورو. هناك تقدير عند العاملين في ميدان الاستخبارات أن 90 في المائة من المعلومات التي حصلت عليها الآذان الكبيرة، مصدرها الذكاء الاقتصادي. وقد كشف ويكيليكس، وهو الموقع الذي أُطلق لتحذيــر الناس، أن الوكالــة الأمنية كانت تتجسس على الهواتف -غير المؤمنة- لرؤسائنا جاك شيراك ونيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند. ولم يكن للاحتجاجات القوية التي عبر عنها هؤلاء أي تأثير. وقد استغلت ذلك الناسا، وخاصة في فرنسا، لكي تقول إنها تعرف كل شيء عن الطبقة السياسية، وسرعان ما هدأت العاصفة.

تُمكن المعلومات التي تم جمعها أيضا من التعرف على حبات الرمل غير المرغوب فيها والتخلص منها، أي هؤلاء الذين يعارضون

النظام. وقد اعترف غوغل في سنة 2015 أنه مكن السلطات الأمريكية من حسابات ثلاثة أعضاء من ويكيليكس. فجهاز الاستخبارات لا يستهدف فقط المحذرين. ففي نوفمير 2008، التقط جهاز GCHQ في بريطانيا، ما يعادل الناسا في أمريكا، عناوين إلكترونية لصحفيين في العديد من البلدان، وأصبح ممكنا لكل الأجهزة المعنية الاطلاع عليها، وخاصة المراسلات بين الصحفيين ومدراء التحرير حول مقالات بعينها[1]. فالخطر الذي تمثله الصحافة، عندما تقوم بعملها، هو ما تشير إليه بالصريح الواضح وثيقة للناسا. فهذه الأجندة التي التقطها سنودان تؤكد أن "الصحافيين والمستطلعين في كل وسائل الإعلام يمثلون تهديدا محتملا للأمن". وخاصة "صحافة الاستقصاء المتخصصة في قضايا الدفاع"، فالصحافيون قادرون على استعمال طرق شرعية وغير شرعية، وخاصة مع الموظفين السابقين للحصول على معلومات رسمية يُمنع تداولها". مع هذا التدقيق: "إن طرقهم في العمل تمثل تهديدا حقيقيا". وكما يعترف بذلك جان كلود كوسوران المدير السابق لـDGSE، الاستخبارات الخارجية الفرنسية: "يمكن للاستعلامات أن تكون مؤذية للديمقراطية"[2].

والمدهش حقا هو أن عمالقة النيت الذين يبشرون بانتهاء الحياة الخاصة يقومون بكل شيء لكي لا يعرف عنهم الناس أي شيء. إن الشفافية التي يقترحونها علينا هي في الواقع مرآة بدون

---

(1) «GCHQ Captured emails of journalists from top international media» The gardian, 19 Javier 2015

(2) Jean-claude Cousseran et Philippe Hayas: Renseigner les démocraties, renseigner en démocratie, Idile Jacob , 2015

طلاء. "إن القدرة على مراقبة كل الوقائع وكل الحركات التي تخص الآخرين، مع إخفاء ما يعود إلى المراقب، هي أسمى أشكال السلطة. إنه أمر يخص شركات كبرى كغوغل أو فايسبوك. هذا ما قاله فرانك باسكوال أستاذ القانون في جامعة ميريلاند في الولايات المتحدة ومؤلف "الصندوق الاجتماعي الأسود"[1]، وهو الكتاب الذي يُدين فيه وجود "صندوق أسود" لا يمكن اختراقه ومحمي بالسر العسكري والصناعي والتجاري. وكان غي دوبور قد أعلن عن ذلك في كتابه "مجتمع الفرجة"[2]: "بقدر ما نتكلم عن الشفافية، فإننا لا نعرف من يحكم من، ومن يتحكم في من وبأية غاية". إن البيغ داتا هي وكالات للاستخبارات، لكي نستعيد الشبه الذي يقدمه فرانك باسكال، فهي التي تغذيها، كما هو حال مَلك ليديا في الكتاب الثاني من جمهورية أفلاطون: لقد استعادوا خاتم سيجاس الذي يجعل المرء غير مرئي، وهكذا، فإنه يرى دون أن يُرى. يترك غوغل أو آبل الباب مواربا للصحفيين المتملقين الذين يعرفون أنهم سيُقصون من الجنة مع كتابة أول مقال نقدي. ألم يضع غوغل صحفيي الاستطلاع في الموقع الأمريكي CENT في اللائحة السوداء لمدة سنة، لأنهم نشروا معلومات تخص إيريك شميدت، ما يعود إلى راتبه الشهري وعنوانه وهواياته أو بعض الهبات التي قدمها؟ يتعلق الأمر بمعلومات حصلوا عليها، يا لسخرية القدر، بالاستعانة بمحرك البحث في شركته.

---

(1) op cit

(2) Guy Debord : La socité du spectacle, éd Folio, 1967 (المترجم)

إن هوس المصفوفة حاليا هو أن لا يكون هناك أي إدوارد سنودان آخر يمكن أن يفتح العلبة السوداء ويكشف عن أسرار مخفية. يُنظر إلى الإنسان الآن باعتباره الحلقة الضعيفة التي يجب حذفها من الميثاق. فمن الأفضل أن نضع المراقبة بين أيدي آلات بلا رحمة. ذلك أن في قلب الجهاز الاستخباراتي، ضمن قدس الأقداس، هناك حالات ضمير ممكنة. مثال ذلك حالة ال 43 جنديا في الاحتياط في وحدة النخبة 8200، ما يشبه الناسا إسرائيلية، الذين وقعوا في سبتمبر 2014 رسالة مفتوحة يدينون فيها الأساليب المستعملة من أجل "مراقبة ملايين الفلسطينيين". إن المراقبة الآلية توتاليتارية بالمطلق.

إن نموذج الهيمنة الدكتاتورية التي وصفها أورويل في 1984 تم تجاوزها على المستوى التكنولوجي.

استيقاظ الأشياء

"يعرفون عنكم من خلال الأشياء المتصلة أكثر مما تقوله بصماتكم"[1]

يُطلق عليها الكيانات المتواصلة. يتعلق الأمر بأشياء عادية تنتمي إلى معيشنا اليومي، كالمصباح والكرسي والقمامة وآلة تهييء القهوة أو الثلاجة، إنها أشياء تتحاور فيما بينها. وموضوع حوارها الوحيد هو نحن الكائنات الإنسانية. فمرحبا بكم في عالم الثرثرة الرقمية. فبفضل تكاثر اللاقطات أو الشرائح المستقلة، الشبيهة بشرائح البطائق البنكية أو بطائق الاشتراك في المواصلات، أصبح محيطنا يتجسس على أفعالنا وحركاتنا. إنه يجمعها ثم يرسلها إلى المصفوفة. نحن أمام رقمنة متسارعة للواقعي. فحسب غوغل سيكون نصف العدادات الكهربائة متصلا على مستوى المعمور، ومثلها 118 مليون آلة منزلية. وفي المجموع سيكون هناك 20 مليار من الكيانات المتصلة مع بعضها البعض هي التي تؤثث محيطنا.

وسيتجاوز عددها 30 مليار في 2020. لقد دخلنا عصر الاتصال

(1) Eric Peres إيريك بيريس نائب رئيس اللجنة الوطنية للمعلوميات والحريات، ديسمبر 2014

الدائم. ها هي الرقمية تلتهم الواقعي، كما يفعل ذلك كون يتسع ليلتهم كل شيء في محيطه. وإلى حدود الآن كنا من أجل الدخول إلى العالم الرقمي في حاجة إلى مدخل، إلى جسر يمكن أن يكون هو الحاسوب أو اللوحة أو الهاتف المحمول. وتنشط البيغ داتا الآن من أجل التقليص من المناطق البيضاء. فقد أطلق مارك زاكربيرغ مشروع لون Loon الغاية منه ربط الـ 4 ملايير من البشر الذين مازالوا محرومين من الأنترنيت، من خلال إطلاق 11000 بالون من الليتيوم في الفضاء. إن الشبكة تغطي وجودنا دون أن نكون في حاجة إلى الاتصال. فلم يكن السمارتفون الذي يمكن تحديد موقعه سوى طليعة لـ"أنترنيت الأشياء" هذا، كما كان الأمر مع إطلاق النظارات المضخمة للواقع، غوغل / مرآة الشهيرة أو الأيووش، والساعة المتصلة بآبل.

إنه الوعد بعالم مسحور تكون فيه الأشياء خاضعة للأصبع واليد، وتتوقع رغباتنا حيث يقوم مصباح الصالون من تلقاء ذاته بنشر ضوء أزرق، ذلك اللون الذي نفضله، مع حجم الإضاءة الذي يتلاءم مع مزاجنا، أو الكرسي الذي يتعرف علينا فيستقيم وفق حجمنا ويرتد المسند إلى الخلف عندما تشير اللاقطات إلى القلق الذي يدعونا إلى التمدد، أو بعد ذلك، تنطلق آلة تهيء القهوة عندما تنذرها قارئة إيقاع قراءتنا الذي بدأ يتباطأ، وهي علامة على أننا نقاوم النوم، فتمدنا بفنجان قهوة. إن هذا المستقبل الرائع الذي تتحدث عنه وسائل الإعلام التي بهرها خطاب ملك التكنولوجيا، هو الوعد بأن تصبح حياتنا سهلة لكي نكون مستعدين دائما للدفع.

لأنترنيت الأشياء غاية واحدة: إشباع شره المصفوفة إلى المعطيات الأولية. إنها شبيهة بمولوخ Molokh[1] الذي لا شيء يُشبع شهيته. إنه منطق "المزيد من كل شيء"، ذلك الشره الملازم للبيغ داتا. إن مراكمة المعطيات هي التي ستغذي بدون توقف ثراء أقلية وديمومة جهاز الرقابة. نعتقد أننا ديكة من عجين، والحال أننا ذباب وقع في فخ العنكبوت، حيث يتم التعرف على كل حركة وتحديدها وتحليلها. ستخرج الشركات الكبرى للرقمية من عاداتنا حجرا كريما بقيمة مضافة عالية عند المعلنين. إن الغاية من الوعد بتسهيل حياتنا هي في واقع الأمر تحويلنا إلى مستهلكين مهووسين. إنهم يحثوننا على الشراء بأسرع طريقة وبأكثرها آلية دون التفكير في ذلك، كما لو أن الأمر يتعلق برد فعل فقط. إنه "النقر-الشراء" بلغتهم. لقد اخترع مهندسو أمازون-وهي أكبر تاجر في الشبكة في العالم بـ26 مليون منتج يباع يوميا- سنة 2015 صندوقا صغيرا إذا وُضع على آلة الغسيل أو الطابعة يمكن بضغط يدوي بسيط تجديد المسحوق أو شحن المداد عن طريق الأنترنيت. فالداش بوتون Dasch Button[2]، الذي يباع باعتباره ربحا للوقت، يُنذر بالمرحلة المقبلة، مرحلة "الأشياء الذكية" التي تعلن عن الطلبيات من تلقاء نفسها.

لقد تمكنت الماركات الكبيرة بفضل البيغ داتا من كسب ثقة الناس بسهولة. ولكن أهم مادة في المعطيات الأولية هي "نسبة

---

(1) مولوخ إله كان يعبده الكنعانيون، وقد عرف عنه بأنه شرير يستهويه القتل ولا يشبع إلا بالأطفال الذين يقدمون إليه كقرابين (المترجم).

(2) Dasch Button الزر المتصل وهو من إنتاج أمازون (المترجم)

التحول"، أي احتمالية أن نجعل من مستهلك محتمل زبونا فعليا. إنها خدمة يقدم الإشهاريون مقابلها الشيء الكثير. فلماذا انخرط غوغل إذن في صناعة سيارة؟ إنه مشروع تولدت عنه الكثير من الاستطلاعات، والكثير من المقالات المتحمسة. أولا لكي نعرف كل شيء عن السائق وركابه، وطريقة القيادة والإذاعة المفضلة لديه، أو الوجهة المنشودة لكي يقدم بروفايلات موثقة بشكل كبير من أجل تسويق بعينه. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، لقد كانت الغاية هي السيارة المستقلة، تلك التي تمكن من تحسين نسبة التحول. لقد كانت براءة الاختراع التي وضعتها سنة 2011 الشركة مونتون فيو جزءا من الخطة. تصوروا وأنتم تتسكعون في المدينة ظهور عرض مخفض على شاشة السمارتفون مع وسيلة نقل مجانية إلى المتجر، مثلا محل لبيع الأدوات الرياضية أو وكالة أسفار أو مطعم. يمدك اللوغاريتم بمعلومات تخص المدة التي ستستغرقها الرحلة استنادا إلى موقعك وهوية الطريق وحالة المرور. إذا كنت ترغب في ذلك، فإن أقرب غوغل/سيارة ستأتي لتأخذك وتقودك إلى حيث تريد. وقد قال إيريك شميدت، مدير غوغل مفتخرا: "في هذا المستقبل الجديد لن تتوهوا أبدا. نحن نعرف موقعكم بدقة فائقة، قد تصل إلى سنتمترات". لقد قام اللوغاريتم الذي يعرف موقعك وموقع المتجر بمقارنة بين المدة الفعلية وثمن التنقل والربح الذي تريده الشركة، فاستنادا إلى هذه المعطيات حُددت نسبة التخفيض.

وهو ما يقوم به تطبيق فورسكوار Foursquare الموجود في محمولكم، لأنه يعرف موقعكم ويعرف وجهاتكم المفضلة أيضا. هناك معلومات ثمينة تمكن، عندما تقتنيها الماركات، من ابتكار

برامج مناسبة في ميثاق الثقة. فكيف يمكن أن نقاوم حجة الأمن هاته؟ إن اللوغاريتم الذي يقود سيارة غوغل لا ينام ولا يتسلى ولا تؤثر في ناظريه أضواء السيارات، ولا يستهلك الكثير من الكحول ويتميز برد فعل قار.

إن هدف البيغ داتا هو توفير سيارات مستقلة تتحرك في مدننا "الذكية"، يتعلق الأمر ببناء حاضرة رائعة تكون فيها مصابيح الشوارع والأرصفة مخبرين. وقد دشنت مدينة نيس في ماي 2013 أول شارع متصل في أوروبا. كل شيء فيها متصل: القارعة والمصابيح والقمامات، لقد وضعت عليها لاقطات تحلل آنيا حركة المرور وجودة الهواء والضجيج والطقس. فعندما تكون حاويات الأوساخ ممتلئة تنذر مصالح النظافة بذلك. ويتحدد حجم الإضاءة بعدد الراجلين. وتعج المدينة بالكاميرات "الذكية" القادرة على قراءة ما تقوله الشفاه على بعد 200 متر. ويستعمل هذا العقار الحضري في تواصله ويفي WIFI الحاسوب المركزي الذي يتحكم في المدينة كلها.

إن الحاضرة داتا هي مدينة محايدة من الناحية السياسية، يتحكم فيها خليط من الكهرباء والرقمية استنادا إلى معطيات حاسوبية. لقد فُوض أمر الحكامة المحلية جزئيا إلى الآلات، فهي أكثر فعالية من الإنسان. إن الحاضرة الرائعة تحكم نفسها دون إيديولوجيا، كما لا يمكن أن يحدث في مجلس بلدي يتيه في النقاشات السياسية. إن برنامجها الوحيد هو المردودية في الوقت والفضاء. إنها إذن مدينة بلا مواطنين، هناك فقط مستهلكون يجب أن نعتني بسلعهم. نحن

أمام كون تجاري كامل. وهذا أمر جيد، فالناس يعيشون أكثر فأكثر في المدن. وهناك تقدير يقول إنه في سنة 2040 سيعيش 70 في المائة من سكان العالم في المدن، مقابل أقل من 40 في المائة حاليا. وغدا ستستعمل المدن العملاقة المتنافسة فيما بينها حجة السمارت سيتي لكي تجذب إليها السكان الأغنياء. ستمكن الإدارة الآلية للتراب سكان الأرض، وهم يزدادون عددا، من التكدس في ضواحي المدن التي لا تتوقف عن التمدد. وسيكون هناك في الأفق منجم من المعطيات ستستولي عليه البيغ داتا ضمن سوق قدر سنة 2016 بـ39 مليار دولار موجهة لتجهيز معطيات المحيط هاته بعقارات حضرية "ذكية". وضمن هذا النظام الإيكولوجي المنسجم والشفاف والمنتظم سيتطور عدد هائل منسجم ومدجن هو الآخر. إن وسطا مرقمنا هو، في تصور البيغ داتا، فضاء آمن لأنه مراقب، يتعلق الأمر بخدمة مؤدى عنها، كما نعثر على ذلك في الأحياء المغلقة المحروسة التي بدأت تتطور في كل مكان.

"إنها أشياء جامدة، فهل عندكم روح؟ تساءل لامارتين. نعم، إنها روح الحارس. إن صحوة الأشياء هي جزء من التفتيش. فبفضلها، سيكون الأطفال تحت مراقبة دائمة لآبائهم. لقد وضعت ماركة الملابس جيمو Gémo في السوق معطفا للصغار يحدد أماكنهم. والشيء ذاته موجود في المحفظات. إن الكيانات المتواصلة هنا أيضا لتسهر على صحتنا، فبعد الموازين الإلكترونية المتصلة، اخترع ميكروسوفت لفظ wearable[1]. يتعلق الأمر بلاقاطات نحملها معنا

(1) wearable تكنولوجيا محمولة. ويتعلق الأمر بثوب يرتديه المرء ويحتوي على عناصر معلوماتية تكنولوجية (المترجم).

لقياس الأشياء. منها تحديد عدد الخطوات والسعرات الحرارية المستهلكة وتسجيل دقات القلب والضغط الدموي أو تقدير جودة النوم. وبهذا يضع عمالقة التكنولوجيا أنوفهم في قضايا الصحة، ويتعلق الأمر بسوق قُدر بـ 29 مليار دولارا إلى متم 2020. وحديثا قام ويثينغس Withings، وهو مصنع لأساور ذكية، بتمويل دراسة مفادها أن تزايد متوسط عدد الخطوات في اليوم يقود إلى هبوط هام للضغط الدموي. وهو ارتباط تحقق من خلال لوغاريتمات خاصة. إن التكميم[1] المشخص للخطر يتم لصالح شركات التأمين، فهناك في الولايات المتحدة من يَحُث منها زبناءه على التزود بميزان شخصي متصل تريد من ورائه مجازاة الذين يتمتعون بجسم سليم. فمنذ 2014 توفر الشركة الأمريكية لتأمينات أوسكار سوارا متصلا لكل زبنائها. فاللوغاريتمات التي طورتها الشركة تحدد لكل واحد، وفق بروفايله، العدد الأدنى من الخطوات التي يجب أن يقوم بها يوميا. وفي كل مرة كانت تتحقق النتيجة المتوخاة، فالمؤمَّن يربح دولارا واحدا. وعندما يصل العداد إلى 20 دولارا، يقترحون عليه إنفاقها في موقع أمازون، وهو شريك لأوسكار. وكما قال ذلك أحد المؤسسين لأوسكار أمام الصحافة الأمريكية: "لماذا لا نهب هدايا لأعضائنا إن هم حافظوا على صحتهم؟". وبالإضافة إلى ذلك تُضاعف شركات التأمين من وعودها من العلاوات[2] للمؤمنين الذين يقبلون "التعاون معها لمصلحتهم الخاصة". وهناك شركة أخرى تقدم ما يصل إلى 15 في المائة من التخفيض عن عقد التأمين

---

(1) quantification أي الاعتماد على كم المعلومات، لا على نوعيتها (المترجم)

(2) Bonus مكافأة تقدمها في العادة شركات التأمين للزبون الذي لا يتسبب في حوادث السير (المترجم).

على الموت إذا حمل الزبون سوارا متصلا، يُمنح بالمجان، ويقوم مثلا بعَدِّ المرات التي يتردد فيها على قاعة الرياضة المحددة سلفا. ففي أَحد العقود التي تبرمها، يقاس الثمن كل شهر حسب الحالة الصحية للمؤَمَن. فنسبة عادية من الكوليستيرول وضغط دموي جيد له 1000 نقطة. وتُؤخذ حالات التحولات التي تطرأ على الحالة النفسية هي أيضا بعين الاعتبار.

ولم يعد يفصلنا عن توسيع النظام لكي يشمل التعويضات الاجتماعية سوى خطوة واحدة، يستعد البريطانيون لتجاوزها. تفكر حاليا مدينة فيتسمنستر Westminster وضاحيتها اشتراط منح المساعدات بالتردد على القاعات الرياضية، والسمارتفون هو الذي يقوم بعدِّها. وعلى مستوى البلاد كلها، هناك من يفكر في تخفيض الضرائب عن "الشركاء الجيدين في ميدان الصحة" من دافعي الضرائب، حسب كلمات خلية التفكير "صحة 2020". ذلك أن لاقطات الصحة المتصلة ستمكننا من تدقيق كالي Qaly، وهو آلة اخترعتها بريطانيا تحسب قيمة سنة من الوجود بما يقابلها بجودة الحياة. فاستنادا إلى آلة القياس هاته، يمكننا الحسم في تعويض هذا الدواء أو ذاك أو عدم تعويضه إذا كان مكلفا للمالية العمومية. وقد استحسن فريد ويلسون، وهو أحد النافذين في "كابيتال-ريسكور" الأمريكي قائلا: "إن تكنولوجيي البيغ داتا هم أحسن حلفاء للحكومة في البحث عن الاقتصاد"[1]. فمن خلال "الأشياء الذكية" التي تردع المواطنين السيئين، هؤلاء الذين يكلف سلوكهم المنحرف

(1) « Making sens of big data », op cit

السلطات غاليا، تتسلل فكرة أن الصحة هي أمر يخص الفرد وحده. إن الفرصة مواتية بالنسبة لغوغل وأمثاله للتسلل إلى ميدان أعمال المتخصصين في الصحة، ولكن أيضا الإسراع في رفع يد الدولة عن هذا الميدان. فبفضل الكيانات المتواصلة ستستطيع وادي السيليكون تبذير أموال الصحة العمومية، وذاك تجسيد لسياسة التضامن. إن دولة الرعاية هي عدو أنصار الإيديولوجية اللبرالية، ذلك التصور القائل إن كل فرد مسؤول أمام نفسه. وقد شرح ذلك إيفان إليتش، وهو فيلسوف اللانمو، ففي تصوره ستصبح التقنية التي لا تكون متلائمة مع الإنسان مناهضة للنمو، وتنتهي بأن تُذله وتستعبده وتفككه، عوض أن تكون في صالحه.

وماذا يمكن قوله عن السوار الذي يدعى "بافلوك" الذي اقترحته شركة أمريكية؟ فعندما تكون متصلا مع هاتفك، يبعث لك إشارات كهربائية قوية إلى حد ما إذا لم تصل إلى غايتك، مثلا التوقف عن التدخين أو تقليم الأظافر أو النوم متأخرا. وتلك الوسادة "الذكية" التي تحلل أصوات وحركات الفك لكي تستخلص سرعة الكمية المستهلكة من الطعام وعدد السعرات التي تتضمنها استنادا إلى الوجبة التي تضعونها في التطبيق؟ فإذا حاولت تجاوز الحد المسموح به من السعرات تنذرك "الوسادة الذكية"... يبدو أن الهم الذي تتحدث عنه البيغ داتا لا علاقة له بما كان يفكر فيه الإغريق القدامى. فلا يتعلق الأمر باتباع طوعي لمبادئ تمكن من الحفاظ على توازن جسدي ونفسي لممارسة حياة سليمة وهرمونية، بل بتدبير للإتقان الهادف إلى خلق حالة تطابق مع مثال تفرضه

الإحصائيات. سيفرض ظهور "الأشياء الذكية"، على مستوى الكرة الأرضية، "التطبيع الانضباطي" الذي كان يخشاه ميشال فوكو. ويكمن هذا التطبيع في "جعل الناس والأفعال متطابقة مع النموذج". سيصبح كل فرد، نتيجة إحساس بالذنب أو خوفا من ألا يكون ضمن المعيار، رقيبا على نفسه. وهذا يسير عكس ما يدعو إليه زعماء وادي السيليكون: بفضلنا، اتسع مجال حرية الفرد.

بإمكان البيغ داتا غدا، بعد أن غيرت من طبيعة الأشياء المحيطة بنا وحولتها إلى كيانات متواصلة، أن تجعل من الإنسان نفسه موضوعا. وتجرب شركة أمريكة شريحة بدون لمس بإمكانها، إذا وضعت تحت الجلد، أن تفتح قفلا إلكترونيا، أو تقوم بدفع فاتورة بعض المشتريات. وقد زرعته سنة 2015 الشركة السويدية إيبنسير لـ250 أجيرا متطوعا يستعملونها من أجل أداء فاتورة الغذاء. فعملاق الدفع الإلكتروني يشتغل على قرص إذا بلعه فرد ما لن يكون مضطرا إلى نقر أو تذكر كلمة السر. وهناك صيغة أخرى هي الوشم الإلكتروني. فهذه الخيوط التي صممها بعض الباحثين الأمريكيين تُلصق بالجلد وستراقب مثلا الحرارة ونبض القلب ونسبة الكرويات البيضاء أو الضغط الدموي. هو ذا رمز الاستلاب الأقصى، أن تضع علامة البيغ داتا في جسدك.

عشاء الملوك

"هناك فوق هؤلاء سلطة واسعة ووصية تكفلت وحدها بضمان متعتهم وهي التي تسهر على مصيرهم. إنها مطلقة ولها تفاصيل ومنتظمة وحذرة ورقيقة. إنها شبيهة بالسلطة الأبوية لو كانت مثلها تود إعداد رجال يكونون راشدين في المستقبل، ولكنها تود، على العكس من ذلك، أن تحافظ عليهم أطفالا (...) وهكذا دأبت على جعل الاختيار الحر بلا قيمة ونادر الاستعمال؛ إنها تحاصر فعل الإرادة في فضاء ضيق، وتسلب المواطن شيئا فشيئا كل شيء بما فيها استعماله لنفسه".[1]

في 17 فبراير كانوا جميعا هناك، 14 من عمالقة النيت بدعوة من رئيس الولايات المتحدة إلى عشاء على شرفهم في البيت الأبيض. وكانت تراود باراك أوباما في تلك الليلة فكرة أن يجعل من إيريك شميدت، رئيس غوغل، وزيرا للتجارة، إذا أُعيد انتخابه. وقد شكل "عشاء الملوك" هذا، كما سمته الصحافة الأمريكية، فالإدارة الأمريكية نشرت صورا عنه في موقع تقاسم الصور FLIK .FR، منعطفا حاسما في سيرورة استيلاء البيغ داتا

(1) Alexis de Tocqueville , De la démocratie en Amérique 1840

على السلطة. فبفضل برنامج صممه مهندس في الإعلاميات، هو رايد غاني، وكان متخصصا في التحليل الاستشرافي، سيكون بإمكان شركات وادي السيليكون صناعة انتصار باراك أوباما في سنة 2012. فعلى امتداد أشهر عديدة أغلق ما يقارب 50 مهندسا إعلاميا على أنفسهم في قاعة سرية لمركز قيادة حملة أوباما التي أُطلق عليها "الكهف". كان عملهم هو: معالجة ملايير المعطيات الأولية التي تم جمعها من الشبكة انطلاقا من تعليقات المبحرين، للتعرف على الأمريكيين الذين قد يصوتون على المرشح الديموقراطي. وهو استهداف سيُمكن من عزل كل مواطن متردد والسعي لاستمالته بخطاب يلائمه. يتعلق الأمر بـ"دق للأبواب" متقن وشخصي هو الذي خلق الفارق. خمس سنوات قبل ذلك كان أوباما قد أرسل، بمساعدة تكنولوجيا البيغ داتا، 1.2 مليار من الرسائل الشخصية هي التي مكنته من الانتصار على خصمه الجمهوري.

وهذه الصيغة هي التي استلهمها فريق فرانسوا هولاند الذي قلد، أثناء الرئاسيات، باراك أوباما لكي يقيم ما يشبه "الكهف على الطريقة الفرنسية".

فمنذ أكثر من قرن، يعيش رجال السياسة محاطين بمعاهد لاستطلاع الرأي تمدهم بتحاليل تمكنهم من صياغة حجج تستجيب لانتظارات الرأي العام في الحملة الانتخابية. وقد انتقلنا مع البيغ داتا إلى مرحلة أخرى، فهي قادرة اليوم على معالجة ملايير المعطيات واستخراج البروفايل السياسي الفردي يضاف إليه قدرتها على تحديد رد الفعل تجاه هذا القرار أو ذاك. انتهى زمن العينة التي

لا تتجاوز 1000 من المستطلَعين. فبالإمكان اليوم التعامل مع كل فرد في أعمق قناعاته. وبالمقابل، فإن الأداة تؤثر على النتيجة، كما وقع ذلك مع أوباما من خلال التعرف على المترددين والاستفادة من أصواتهم. وهذا يعني أن أسياد المعطيات الأولية هم صانعو الانتخابات في ديمقراطية أمريكا. فهل يستطيع غوغل التأثير في نتيجة الانتخابات؟ الجواب نعم، حسب ما تقوله جريدة أكاديمية العلوم الأمريكية[1]. فقد طلب باحثان من 2100 أستراليا موزعين على ثلاث مجموعات كتابة اسم أحد المرشحين للوزارة الأولى في الانتخابات الأسترالية في 2010، في محرك بحث زُيف لكي تعلن صفحاتُه الأولى نتائج لصالح أو ضد أو محايدة. فكانت نوايا التصويت لصالح هذا أو ذاك تتراوح بين 37 في المائة، حسب التوجيه الذي أعطاه المحرك. إنه تأثير لا يمكن مقارنته مع وسائل الإعلام التقليدية، ذلك أن المبحرين، كما يؤكد العلماء، يثقون في المعلومة التي يأخذونها من النيت، ويعتقدون بقوة في حياد محركات البحث، ولكنهم يتوجسون من الصحافة المكتوبة أو تعليقات الصحافيين في التلفزيون. واستخلص الباحثان من ذلك أن تأثير نتائج محركات البحث على مصير اقتراع ما قد يُشكل تهديدا للنظام الديمقراطي. فأن يكون رئيسا ديمقراطيا هو أول من تبنى نظام الماركوتينغ السياسي القائم على معالجة خالصة للمعطيات، فإن هذا يؤشر على انحراف المجتمعات الديمقراطية التي وقعت تحت

---

(1) R Epstein, R Robertson: The search engime manipumation effect and its possible impact on the outcomes of elections », PNAS Aout 2015

تأثير الخليط الرقمي. ألا يستطيع عملاق سترمينيغ الموسيقى[1]، استنادا إلى ما يقوم الزبائن بتحميله، معرفة ما إذا كانت الدولة الأمريكية ديمقراطية أم جمهورية.

في أبريل 2015 عندما بدأت الانتخابات الأولية الديموقراطية في أمريكا، استعانت هيلاري كلينتون بستيفاني حانون مديرة "التجديد المدني والوقع الاجتماعي" في غوغل، وكانت مهمتها تصور "أشكال جديدة في العلاقة مع الناخبين في عصر الشبكات الاجتماعية والرقمية". وكان تحت إمرتها "جيش" من المصممن والمهندسين. كان على هؤلاء ابتكار تطبيقات من أجل تحسيس الناخبين ومضاعفة عدد المناضلين والرفع من الدعم المادي. وكان النجاح حليفها. فقد جمعت 45 مليون دولار في ثلاثة أيام، وبذلك حطمت وزيرة الخارجية السابقة كل الأرقام. لم تقم البيغ داتا بتقديم الدعم الحاسم من أجل إقناع الناخبين فحسب، بل ساهمت، بالإضافة إلى ذلك، بفضل اللوغاريتمات، في جمع المال، وهو دعم حيوي في تغطية المصاريف الباهظة للحملات الأمريكية. وقد مثلت الحملة الرئاسية الأخيرة 2.6 مليار دولار بالنسبة للحزب الديمقراطي.

إن طبيعة العلاقة بين السياسيين وعمالقة معالجة المعطيات ليست وحيدة الاتجاه، فالعمالقة ينتظرون مقابلا يتمثل في استثمار "أبطالهم" ويأملون أن يجعلوا منهم في النهاية مجرد كراكيز. وقد سبق أن استعبد البيغ داتا الطبقة السياسية، ولها الأدوات والجدوى

(1) streaming musical تقنية في نشر وقراءة المعطيات مباشرة في النيت، وبذلك، فإنها تمنع من تحميل الموسيقى والأفلام (المترجم).

من ذلك. لقد تمكن تداخل مصالحها مع المصالح الاستخباراتية من إقامة مراقبة متزايدة على الطبقة السياسية. فقد كانت لوغاريتمات الناسا تسجل الأسرار الصغيرة والسلوكات المشينة بفعالية أكبر مما كان يقوم به جون إدغار هوفر، المسؤول الرهيب عن FBI. فلم يسبق أن كان الجهاز الاستخباراتي، ذلك الجزء الذي امتزج بالبيغ داتا، بهذه القوة، ولكنها قوة قد تنقلب على أصحابها.

فهذه الشركات العملاقة، بقوتها وطموحاتها، تطعن في شرعية الحكومات المنتخبة. ففي نظرهم ما جدوى أن يجسد السلطة رجال ونساء متجاوزون، في حين أن البيغ داتا يعرفون ما نتشهاه وما نرغب فيه وما ننتظره، ويعتقدون أنهم قادرون على إشباعها قبل أن نعبر نحن عن ذلك؟ والدليل على أن السلطة ليست بين يدي رجال السياسة هو أن راث بورات Ruth Porat، نائبة رئيس البنك العملاق للاستثمار مورغان ستانلي، رفضت منصب نائب وزير المالية سنة 2013، وفضلت عنه مديرة مالية في غوغل... تماما كما لم يستطع باراك أوباما أن يعين إيريك شميدت وزيرا للتجارة. إن رهان وادي السيليكون هو الحكم من خلال المعطيات، التحرر من النقاشات السياسية بغاية الإتقان وتعويض القوانين بالقواعد اللوغاريتمية.

وقد شرحت جونيفير باهلكا Jennifer pahlka نائبة رئيس التكنولوجيا في الإدارة الأمريكية، في محاضرة داخلية في غوغل بحماسة شديدة أن على الحكومة أن تشتغل كما يشتغل الأنترنيت. وقد أدان الفيلسوف والباحث الأمريكي إيفجيني موروزف Evgeny Morozov، وهو متخصص في تأثير التكنولوجيا على المجتمع

ومؤلف كتاب: "من أجل حل كل شيء انقر هنا، عبث الحلولية التكنولوجي"[1]، من جهته استيلاء المعطيات على السلطة وموت السياسة: " فبالإضافة إلى جعل حياة الناس أكثر فعالية، يضعهم هذا العالم الذكي أمام اختيار سياسي هام. فإذا كانت هناك الكثير من العناصر في سلوكنا اليومي قد تم الاستيلاء عليها وحُللت، فلماذا الاعتماد على مقاربات غير تجريبية للتشريع؟ ويضغط على الجرح قائلا: "أليست التكنولوجيا هنا لمساعدتنا؟ هذا النوع من الحكامة له اسم: التشريع اللوغاريتمي. فبما أن لوادي السيليكون برنامجا سياسيا، فلنتبن هذا البرنامج". فعوض أن نتحكم في الأسباب، ما يدفع إلى التخيل والشجاعة ومن أجل مواجهة التعقيدات، علينا أن نتحكم في الآثار.

لقد أطاحت البيغ داتا بالسياسيين. إنه انقلاب غير مرئي الغاية منه هو إفراغ الديموقراطية من جوهرها لكي لا يُترك سوى الغطاء الخارجي سالما في الظاهر. ولم يبق هناك سوى ديكور المؤسسات والمواعيد المقدسة للانتخابات. لم تعد المواطنة سوى كلمة عتيقة، مخلفات إرث إغريقي. لقد كان المواطن في أثينا هو المركز. وكانت ممارسة المواطنة نشاطا يوميا يقوم عليه إيقاع الحياة. وكما يتأسف على ذلك الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغمبين، مؤلف "إنسان بلا مضمون"، "لا تتجاوز المواطنة الوضع القانوني وممارسة حق التصويت، وهي بذلك شبيهة باستطلاع للرأي"[2]. يُضاف إلى

---

(1) fYP édition, 2014

(2) Le mode diplomatique, Janvier 2014

ذلك أن النفور المتزايد من السياسة في الغرب هو لمصلحة البيغ داتا التي تحلم بتحييد المواطن لكي لا تحتفظ سوى بالمستهلك المنتج للمعطيات.

فعندما انتفض أوباما قائلا: "نحن نمتلك الأنترنيت"، كان يعبر بذلك عن واقع جديد: تستمد بلاده قوتها من عمالقة الرقمية. لقد وفر الأنترنيت للولايات المتحدة فرصة ثمينة لكي تتزعم الكون وتحافظ على هذه الزعامة أيضا. وقد مكنت الرغبة الجامحة التي تدفع الإنسان إلى الاتصال لكي يتواصل بسرعة ومع أقصى نقطة من نصب شبكة هائلة تسقط فيها الآن كل معلومة، ويتم بثها على مستوى الكوكب الأرضي. وما كان لأي حرب أن تقود إلى هذه النتيجة. لم تسع الولايات المتحدة ذاتها أبدا إلى امتلاك أراض جديدة بالقوة، فما يعنيها ليس غزو العالم بل الهيمنة عليه. فبما أن عدد سكانها في تناقص مستمر-إنها تشكل أقل من 5 في المائة من سكان العالم حاليا- فإنها راهنت على التحكم في دائرة المعلومة وهي سابقة بـ 15 سنة على أوروبا. لقد تكيفت الدولة الأمريكية مع هذا الوضع من خلال القيام بنقل السلطة السياسية إلى سلطة البيغ داتا. فمن خلال التهجين، تسعى الولايات المتحدة حاليا، إلى توليد كيان جديد. ويقوم هذا الكيان بجمع مصالح جهاز الدولة مع مصالح الأوليغارشية التي ولدت في أحضان الرقمية.

إن اقتصاد الأنترنيت هو عصب العولمة. لا وجود لحدود يمكن أن تقف في وجهه، ولا ينتظر قادته من الطبقة السياسية سوى إطلاق كلي ليدهم لكي يستغلوا بحرية وجودهم في كل مكان من

خلال نظام ضريبي استثنائي. ويجب ألا يقف في وجه المعلومة ورديفتها، الاستخبارات، أي حاجز. ففي سنة 2014، وبفضل مبالغ مالية ضخمة قدم فايسبوك 319167 أورو مقابل أرباح بلغت 266 مليون أورو، ما يعادل 109 مرات أقل من مبلغ الضريبة الذي كان يجب أن يؤديه[1]. وقد عُرف عن هذه المؤسسة قدرتها على التهرب الضريبي. وهكذا لكي تحصل على عائدات الإشهار الموجهة إلى الفرنسيين خلقت فايسبوك بشكل خاص فرعا لها في إيرلندا حيث نسبة الضريبة ثلاث مرات أقل من الدول الأخرى. وإيرلندا وجهة مفضلة عند الكثير من المؤسسات التكنولوجية. والامتياز الآخر الخفي في إيرلندا هي أنها سمحت لفروع الشركات المتعددة الجنسيات، آبل مثلا، أن تضع سجلها الضريبي في جنات ضريبية في الخارج، من مثل الجزر العذراء البريطانية.

وتحت ضغط شركائها الأوروبيين توقفت عن ذلك. ولكن الشركات المتعددة الجنسيات التي كانت تمارس الإيرش المزدوج[2] لن تكون خاضعة له إلا في 2020. ففي أكتوبر 2015 أكدت اللجنة الأوربية لاشرعية الاتفاقات الضريبية التي حصلت عليها آبل وأمازون في إيرلندا واللوكسومبورغ. وتحت ضغط الديمقراطيين الأوروبيين توقفت أمازون، التي أصبح مديرها العام السنة الماضية رابع أغنى رجل في العالم بثروة قدرت بـ 59.7 مليار دولار، عن التصريح

---

(1) BFM Busines TV, 21 Janvier 2015

(2) Le double irish إيرلندا المزدولجة وهي استراتيجية اقتصادية عرفت بها إيرلندا، وهي طريقة في التهرب الضريبي (المترجم).

بمداخيلها الفرنسية في اللوكسومبروغ. وهذا يجعلنا نفهم جيدا لماذا تتحمس البيغ داتا لمشاريع "مدن/أمم عائمة" توجد خارج المياه الإقليمية، حيث لا وجود لضرائب. جزر صغيرة لأفراد تجمعهم مصالح مالية مشتركة.

ففي الفصل الأول من سنة 2015 حطمت آبل الرقم القياسي العالمي في الربح، فقد حققت ما لم تحققه من قبل أبدا مؤسسة أخرى في ثلاثة أشهر، ما يعادل 18 مليار دولار. وحطمت كمية السيولة المتوفرة حاليا في صناديقها كل الأرقام القياسية بـ 216 مليار دولار. يتعلق الأمر بكنز حرب مودع في الولايات المتحدة باعتباره حاصل أرباحها التي تم التصريح بها في الجنات الضريبية. إن هذا التبخر يتم بموافقة المصالح الضريبية الأمريكية. وعندما استدعى الكونغريس الأمريكي تيم كوك للاستماع إليه، تحت ضغط دافعي الضرائب الذين اعتبروا أن آبل بالغت كثيرا، تحول ذلك إلى مهزلة. فعوض أن يحاسبوا الرئيس المدير العام، انتشى الشيوخ بحضوره. وقد صرحت برلمانية قائلة: "أحب آبل، أعبد آبل"، وفي تلك اللحظة كان نظراؤها يعبرون عن "إعجابهم" بهذه العلامة التجارية. "لقد كانت أمريكا شاهدة على استماع سوريالي، لقد كانت لحظة غريبة في تاريخ المؤسسات الأمريكية"، كما تروي ذلك المؤرخة مارغريت أومارا، وهي متخصصة في صناعة الهاي تيك الأمريكية[1]. فعندما احتجت أوروبا في بداية 2015 واتهمت غوغل بالشطط والهيمنة، واتهمت فايسبوك بأنها لا تحمي الحياة

---

(1) L'obs, 23 Avril 2015

الخاصة لمستعمليها، تصدى لهم أوباما، "إذا كانت أوروبا تحتج على غوغل وفايسبوك، فليس بدعوى الدفاع عن الحياة الخاصة، التي ليست سوى ذريعة، إنها تفعل ذلك لأسباب تجارية، إنها تحاول أن تقف في وجه المؤسستين".

وكما يفسر ذلك فريد تورنر Fred Turner، وهو سوسيولوجي في العلوم في جامعة ستانفورد ومؤلف "مصادر يوطوبيا الرقمية، من الثقافة المضادة إلى السبرانية الثقافية"[1]، فإن البيغ داتا "لا تريد تقنينا صارما، فهي كائنات خاصة قادرة على بلورة قواعد أفضل من تلك التي تسنها الحكومة. ولا تريد أيضا قواعد أخلاقية تُفرض من الخارج، لأن حكمها الأخلاقي أسمى منها". إن إيديولوجيتهم الضمنية هي الليبرالية المتوحشة، قانون السوق في أقصى حالاته، إمكانية شراء كل شيء وبيع كل شيء بدون ضوابط قانونية. إن السبيل سالك، ذلك أن البديل الإيديولوجي العالمي الوحيد، الشيوعية، التي أنجبت وحشا غير فعال ومعاد للحرية، ماتت بأن تجرعت السم. لقد أصبح الاحتكار، الذي يغذيه شره لا حد له، غاية في ذاته. فحاليا يمتلك 62 شخصا الأغنى في العالم من الموارد أكثر مما يملكه نصف الساكنة الفقيرة، أي 5،3 مليار من الأفراد"[2]. ويأتي بيل غيتس على رأس هؤلاء بـ 79 مليار دولار. وقد التحق مارك زاكربورغ، صاحب فايسبوك، بحلقة العشرين شخصية الأغنى في العالم سنة 2015، والتحق بهم في السنة نفسها، إيفان سبيغيل، وكان أصغر

(1) l'obs, 23 avril 2015

(2) C&F 2dition, 2013

ملياردير وهو في سن 24، وهو مبتكر سنابشات، وهو تطبيق لتقاسم الصور والفيديوهات على الهاتف المحمول. وقد حصل في 18 يوليوز لاري بيج وسيرغاي برين، وهما مؤسسا غوغل، كل واحد منهما في يوم واحد على 4 ميارات من الدولارات بفضل ارتفاع أسهمهما في البورصة. فالشركات الأمريكية للهاي تيك هي حل لمشاكل التفاوتات الاقتصادية"، هذا ما صرح به إيريك شميدت الرئيس المدير العام لغوغل، الذي تقدر ثروته بـ 10 مليارات دولار، ويشرح للمعنيين بالأمر أن مشاريع طورتها أو دعمتها غوغل مكنت من تحسين التربية في إفريقيا أو صحة المصابين بداء السكري. "فإذا كانت هذه الشركات قادرة على الحركة في حدود ما يسمح به القانون، في ميدان الضرائب والحق في التنافس وحماية الحياة الخاصة، فإن قدرتها هاته آتية من كونها "مرتبطة بالنخبة الحاكمة"، كما يذكر فرانك باسكويل[1]. "تشكل وادي السيليكون، الدائرة المالية الأعلى، في نيويورك ورأس الاستخبارات العسكرية في واشنطن، كتلة تزداد وحدتهما يوما عن يوم".

تكمن قوة هذا العدار[2] ذي الرؤوس الثلاثة الذي يهيئ لنا مستقبلا تسوده التفاوتات المطلقة وتسوده المراقبة الشاملة، في تقديم وجه واحد مرح هو الوجه الصديق[3]. لقد تعلم الكيان

(1) the black box society, op cit

(2) hidre العدار هو حيوان خرافي له عدة رؤوس، كلما قطع منها واحد ولد مكانه اثنان، ويقال إن هرقل هو من خلص الناس منه (المترجم).

(3) very friendly

الوحشي الذي يحتضن القوة الأمريكية الآن كيف يتجسد في هؤلاء الأبطال الجدد الذين خلقهم. ف بيل غيتس وستيف جوبز ولاري بايج أو مارك زاكنبيرغ يعدون جزءا من حكاية الرواد، كل شيء ممكن عندهم شريطة الحصول على الوسائل، وذاك هو شعار أوباما: "نعم نستطيع". إنهم يرون الشر في كل مكان. وكما يقول ذلك شعار غوغل: لا تكونوا سيئي الظن".

غوغل قتلني[1]

"يجب شد انتباههم، حينها نستطيع امتلاك قلوبهم" إيريك شميدت، الرئيس المدير العام لغوغل 2011.

تعد لوس ألتوس أحد أغنى الأمكنة في كاليفورنيا. ففي هذه المدينة السكنية ذات الممرات الواسعة التي تزينها أشجار السكوا والمشمش يوجد المقر العام لغوغل فوق مونتين فيو، وفيه مدرسة غير متصلة. يشتغل آباء الثلاثة أرباع من الطلبة عند هيفليت باكار أو آبل أو ياهو أو غوغل. وفي قلب وادي السيليكون، في منطقة نفوذ البيغ داتا، لا حق للطلبة الذين يتابعون دروسهم في فالدورف سكول للبنينسيل[2]، في الاقتراب من شاشة السمارتفون أو أيباد أو الحاسوب قبل السنة الرابعة. تحرص الرؤوس المفكرة للرقمية على

---

(1) كتبت هذه العبارة في النص خطأ، google m'a tuer وتشير إلى عبارة أخرى كتبتها سيدة فرنسية لحظة اغتيالها لكي تدل الشرطة على قاتلها Omar m' a tuer، وكان المعني بذلك هو عمر الرداد، وهو مواطن مغربي كان يشتغل بستانيا عند هذه السيدة، وقد اتهم بقتلها. وهذه العبارة هي التي ستنقذه، لأن فرنسية لا يمكن أن تكتب الفعل قتل في صيغة غير مصرفة وقد سبقها فعل العندية. أما غاية المؤلف من ذلك فليست واضحة، على الأقل بالنسبة إلي (المترجم).

(2) Waldorf school of Peninsula

حماية أبنائها من العالم الذين يُعدونه لأطفال الآخرين. فلنأخذ غيفان ويليام، أحد مؤسسي تويتر مثالا على ذلك، فهو عوض أن يهدي أطفاله أيباد، يشتري لهم مئات الكتب الحقيقية. وقد كان ستيف جوبر، مبتكر آبل[1]، يمنع على عائلته منعا كليا أيفون أو أيباد أثناء وجبة العشاء. وقد أسر كاتب سيرته لـ نيويورك تايمز أن "ستيف كان يحرص كل مساء على أن تجتمع العائلة كلها لتناول وجبة العشاء في القاعة الكبيرة للمطبخ لكي يتحدثوا عن الكتب والتاريخ وأشياء أخرى كثيرة. لا أحد يخرج محموله أو حاسوبه. لم يكن الأطفال مأخوذين بهذه الآلات". ومؤخرا نشر بعض المتخصصين في طب الأطفال وبعض الأساتذة إعلانا مشتركا في وسائل الإعلام يدعون فيه إلى "تجنيب الأطفال" اللوحات. فقد لاحظوا من خلال مقارنة أطفال متصلين بآخرين ليسوا كذلك، وجود تبعات سيئة على المتصلين. فقد سجل هؤلاء أن اللوحة عندما تصبح هي الآلة المحفزة الأولى، "فإنها تزيد من اضطرابات الانتباه"، "وتعطل ظهور اللغة"، وتعوق بناء مبدأ السببية والمقولات الأولى للزمن"، "وتؤثر على نمو الحركية الدقيقة والشاملة"، و"تسيئ للتنشئة الاجتماعية الملائمة"[2]. وقد بينت الدراسات العلمية أن التعرض الكثيف للشاشات يولد آثارا سلبية كبيرة على نمو الوظائف المعرفية، وهذا أمر أثبته ميشال ديسميرغات، مدير الأبحاث في علم الأعصاب

---

(1) «Steve Jobs was a low-tech parent», New York Times, 10 septembre 2014

(2) «Les tablettes, à eloigner des enfants», Le monde, 16 septembre 2915

في إنسيرم Inserm، معهدنا الوطني للصحة والأبحاث الطبية.

ولم يمنع قلق الباحثين ستيف جوبز، المهتم بتوسيع سلطة آبل، أن يعطي توجيها لفريق التسويق عنده، فترة قليلة قبل مماته، لكي يضغطوا على المدارس لكي يكون للتلاميذ أيبادات تكون هي أداة القراءة عندهم، دون الحاجة إلى الكتاب الورقي. والغاية من ذلك هي استعمال المدرسة كرأس جسر للترويج لمنتجاته وجعل التلاميذ زبائن في المستقبل من خلال خلق نوع من الألفة بينها وبينهم منذ الصغر. ولكي تفرض آبل نفسها في المؤسسات التعليمية في مواجهة المصنعين الآخرين للوحات، خففت من قواعدها الصارمة التي كانت تقتضي إدخال كلمة السر كلما أراد المرء إضافة مضمون جديد للأيباد. ويُعد سوق الكتاب الرقمي أداة كسب رائعة، لأنه يقتضي صرف مال آخر من أجله بعد بيع اللوحة. وقد ضمنت المؤسسة من خلال بيع 170 مليون أيباد في العالم دخلا قارا، فهي تتلقى مقابلا عن كل كتاب يتم تحميله. إن القراءة مؤدى عنها أيضا. فالأيبوك يَعُج بالبرمجيات الجاسوسة التي تلاحق عادات الناس في القراءة. وهكذا، أعلن صانع لوحة كوبو KOBO، أحد الرواد العالميين في القطاع، وشريك لافناك fnac في فرنسا، بعد أن زود قاعدة بياناته بـ 21 مليون من المستعملين، في ديسمبر 2014، أن 7.3 في المائة فقط من القراء الذين اشتروا آخر زمور[1] قد قرأوه

---

(1) Zemmour إشارة إلى كتب إيريك زمور وهو كاتب فرنسي عرف عنه ميله الشديد إلى اليمين الفرنسي المتطرف، وكرهه للعرب والمسلمين والمرأة والسود والأجانب عامة (المترجم).

إلى نهايته، والثلث من الذين حمّلوا كتاب فاليري تريلفيير[1] في الصيغة الرقمية توقفوا عن قراءته قبل إنهائه. ستجمع البيغ داتا، في عملية اختيار الكتب وفي طريقة قراءتها، معلومات ثمينة ستبيعها بعد ذلك إلى الناشرين والمعلنين الذين يبحثون عن أحسن الطرق في استهداف المستهلكين. ففي فرنسا يتم تمويل الموقعين الرئيسيين للتحميل غير المحدود للكتب الرقمية مما يتم جمعه من معطيات القراءة. ويقترح يوبوكس youbox مثلا على الناشرين موقعا موجها يمكن الاطلاع عليه لمعرفة بروفايلات القراء.

لا يتعلق الأمر مع الأيبوك بنزع الطابع المادي عن الكتاب فقط، بل "بتنقيحه" و"إغنائه" أيضا، أي يصبح ديناميكيا من خلال الروابط التشعبية، وبذلك ستشوش جسور عديدة نحو الشبكة على القراءة بالصوت والفيديوهات وملاحظات أخرى من كل الأنواع. إن غاية البيغ داتا هي تمديد زمن الاتصال، وهو اللحظة "المثمرة". فلا يمكن الوصول إلى القارئ المنغمس في كتابه الورقي، لأنه غير مرتبط بالشبكة، ولا يقدم بذلك أي معطى، وليس له أي أهمية تجارية. وقد أدان الكاتب الأمريكي نيكولا كار، مؤلف كتاب "الأنترنيت يجعل المرء بليدا" ذلك قائلا: "آخر شيء يبتغيه مقاولو الأنترنيت هو القراءة البطيئة والهادئة أو التي فيها تركيز. فمن مصلحتهم الاقتصادية تشجيع التسلية"[2]. إن القارئ الرقمي هو امتداد للفرد

---

(1) تريلفيير إشارة إلى Valérie Trierweiler وهي رفيقة فرانسوا هولاند، وقد انفصل عنها ليرتبط برفيقة جديدة، وكتبت كتابا بيعت منه آلاف النسخ وكان عنوانه : شكرا لك على هذه اللحظات الجميلة" (المترجم).

(2) Robert Laffont, 2011

الفائق الاتصال الذي، مثله في ذلك مثل النحلة عندما تصاب بالجنون، يقفز دائما من موضوع إلى آخر. إن الفكر يتشظى ويتحقق التأمل من خلال التشنج. وقد حذر الفيلسوف روجي-بول دروات من أن "هذا الانتقال الدائم من اتصال ذهني إلى انفصاله، والتراكب الدائم بين سجلات متنوعة ومتنافرة، والتبعية الدائمة للشاشة والإرساليات المختلفة التي تخطب ودنا قد تؤدي إلى تغيير جذري في طرق تفكيرنا وفي طرق إحساسنا أيضا"[1]. وقد اكتُشف حديثا أن قراءة أيبوك لا تستنفر في أذهاننا نفس المناطق التي يستثيرها كتاب ورقي. والدليل على ذلك أن الأيبوك يؤثر عميقا في بنية تفكيرنا. فقارئه لا يتلقى بما يكفي الإرسالية، وذاك يؤثر على فهمها. وقد قام باحثون من جامعة ألبيرتا بتجارب مقنعة. فقد طلبوا من مجموعتين من المتطوعين قراءة القصة ذاتها، وكانت النتيجة هي أن 75 في المائة من الذين كان من نصيبهم نص مَزيد، أشاروا إلى أنهم وجدوا صعوبة في تتبع أحداث القصة، مقابل 10 في المائة عند الآخرين. وتؤكد باتريسيا غرينفيلد، أستاذة في السيكولوجيا في جامعة كاليفورنيا وخبيرة في نمو الطفل، أن الاستعمال المتزايد للأنترنيت "قد يضر بقدرتنا على اكتساب معارف عميقة، والقيام بتحاليل قياسية وإنتاج روح نقدية، وقد يضر التخيل والتفكير"[2]. ولم تكن وحدها من العلماء من انتابه القلق. فقد نبه غاري سمول، أستاذ السيكولوجيا في جامعة كاليفورنيا على "أن الانفجار الذي تعرفه التكنولوجيا

---

(1) Monique Atlan, Roger-pol Droit : Une enquete philosophique sur ces révolutions qui changent nos vies, Flammarion 2012

(2) Ibrain: Surviving the techonlogical alteration of the modern Mind, HarperCollins, 2008

الرقمية حاليا لا تغير من طريقة عيشنا وطريقة تواصلنا فقط، بل تؤثر أيضا بسرعة وعمق على دماغنا"[1]. فلم يسبق أن عرفت خطاطاتنا في الإدراك تحولا جذريا كهذا في فترة زمنية قصيرة.

ومن حسن حظ البيغ داتا أن الدماغ البشري، التواق إلى المثيرات، هو فريسة سهلة. فقد كان الانتشار في العصر الحجري القديم شرطا من شروط البقاء. فالانتباه المنتشر على 360 درجة، يسمح بالتعرف، في ضجيج العمق، على إشارة تفيد بوجود خطر ما وتجنبه. فالذهن اليقظ والحذر يلتقط الكثير من التحذيرات الصادرة عن ضجيج بسيط، من قبيل رائحة جديدة أو حركة مشبوهة. ذلك أن التركيز لمدة طويلة على موضوع واحد قد يؤدي إلى الموت. وهناك تجربة مشهورة، يقال لها "الغوريلا غير المرئية" تبين إلى أي حد يستطيع الدماغ، عندما يركز على شيء واحد أن يُقصي كل الأشياء الأخرى. فقد وضع علماء في هذه الدراسة فيديو لمباراة في كرة السلة وطلبوا من المتفرجين القيام بتحديد دقيق لعدد التمريرات التي قام بها اللاعبون باللباس الأبيض فيما بينهم. لقد انغمس نصف المشاركين في التجربة ولم ينتبهوا للاعب كان متخفيا في غوريلا وكان يجتاز الملعب وهو يلطم صدره.

لا يتوقف دماغنا الذي تستثيره الرقمية عن طلب المزيد من هذه الاستثارة. وكما عرفت الصناعة الغذائية، وهي تراهن على شهيتنا الطبيعية للدسم والسكر والملح، كيف تدفعنا إلى ملء سلتنا بدون حساب، فإن الشركات الرقمية تستغل تهافت دماغنا على

(1) «Technological and informal Education: What is Taught, What is Learned » Science, 2 Janvier 2009

التقاط المعلومات. فالدفق المتواصل للتنبيهات على الهاتف المحمول يُحدث مثيرات اصطناعية تقود إلى فقدان المراقبة، ما يشبه شكلا من المغناطيسية الرقمية. ذلك أن انتباهنا المشدود إلى كم هائل من أشياء لا قيمة لها في الغالب، لا يستطيع التركيز، إنه يتوزع كما تتوزع قطع البوزل. إننا نفقد قدرتنا على التركيز والتفكير. وقد عبرت ماريان وولف، عالمة نفس متخصصة في النمو في جامعة توفتس في الماساشوسيت عن قلقها قائلة: "إننا لا نود العودة إلى الوراء، إلى زمن ما قبل الرقمية، ولكن علينا ألا نقبل بقفزة غير محسوبة نحو الأمام دون معرفة ما يمكن أن يخسره أو يربحه "سجلنا المعرفي"[1]. ستختفي القراءة في العمق شيئا فشيئا. ستصبح إعادة قراءة بروست أو تولستوي صراعا ضد الذات، وتمرينا مؤلما لدماغنا الذي تعود على اللعب. ومع ذلك، قد يكون الكتاب، "خارج الشبكات والدفق الدائم للمعلومة والاستنباه، آخر حقل للمقاومة، كما أكد ذلك سيدريك بياجيني مؤلف "إمبراطورية الرقمية، كيف احتل الأنترنيت والتكنولوجيات الجديدة حياتنا"، وهو كتاب يقدم نقدا مؤسسا للعالم الذي تُعِده لنا البيغ داتا[2]. "يشكل الكتاب الورقي، أكثر من أي وقت مضى، في خطيته وغائيته، فضاءً صامتا يشكك في عبادة السرعة، ويمكن من الحفاظ على انسجام داخل الفوضى"، كما يشرح ذلك هذا الكاتب. إننا لا نسبر في الرقمية أغوار الكلمات، إننا نظل في السطح، ونكتفي بالتزحلق فوقها. لقد تحول الويب إلى آلة من أجل تبسيط الواقع، بل وتبسيط اللغة

(1) «Le nouvel age de l'automatisation », Les entretiens du nouveau monde industriel, décembre 2013

(2) L'Echappée, 2012

ذاتها. فتويتر، التي تعني مكبر الصوت، هو العلامة الكبيرة على ذلك، حيث يجب الضغط على الفكر لكي لا يتجاوز 140 حرفا كحد أقصى. واليوم لا يتجاوز مخزون بعض التلاميذ المتصلين باستمرار، 500 كلمة عند نهاية المرحلة الابتدائية. فكراكيز البيغ داتا، وهم يُفقرون اللغة، إنما يُقلصون من التنوع الدلالي فيها ويُبَسطون رؤيتنا للعالم ويُمَعْيرونها. إن القضاء على الحس النقدي عندنا، هو حماية للنظام وضمان على عدم التشكيك فيه، في الوقت ذاته.

لقد انساقت المدرسة التي كان من المفروض أن تكون فضاء غير متصل، ومكانا للمقاومة وزرع الحس النقدي، مع هذه الموجة. وذاك ما فعلته نجاة فالو بلقاسم[1] دون تبصر في مخططها: "لوحة من أجل تربية رقمية"، وهو المخطط الذي توقع في البداية تجهيز كل أقسام السنة الخامسة بها. وقد خُصص مليار أورو موزعة على ثلاث سنوات لهذه القفزة الكبيرة نحو الرقمية، بهدف أن "تكون فرنسا هي الرائد في التربية الإلكترونية". ولم يُبْد الأساتذة احجاجا كبيرا، آملين أن يساعدهم ذلك على شد انتباه التلاميذ الذين لم يعودوا، وقد طوحت بهم الإثارات الانفعالية، قادرين على تحمل الزمن الطويل للمدرسة، وهو الفضاء الضروري للتعلم. فمن الواجب، كما يذكر بذلك الفيلسوف إيريك سادان،" أن يشجع التعليم على "شكل صحي للاختلاف"، وهو ما يقدمه بالضبط الكتاب المطبوع. "إنه موضوع ملموس مغلق على نفسه، ولكنه مفتوح على كل تجارب المعرفة والمتخيل. إنه يُعرَض على النظرة

---

(1) نجاة بلقاسم وزيرة التربية الوطنية في عهد فرانسوا هولاند وهي من أصول مغربية (المترجم).

وفق غيرية بعيدة تدعو إلى التركيز، إن الكتاب ضروري للتفكير وإنضاج المعرفة". ويضيف مؤلف الحياة اللوغاريتمية متأسفا: "تخضع السلطة السياسية لضغط متزايد يمارسه لوبي الرقمية والصناعة". إن المرحلة القادمة ستكون هي مرحلة الأستاذ الإلكتروني. لقد أصبحت المدرسة التقليدية خاضعة لمنافسة الموكس (Moocs)[1]. يتعلق الأمر بدروس على الشبكة تجمع في وقت واحد ملايين التلاميذ وتُقصي الأستاذ. ستحل تغذية خارجية ومراقبة آلية للمعارف محل الإنسان، وهو مصدر الإبداع والمواجهة الفكرية. لن تقوم المدرسة بتكوين المواطنين، بل ستُعِد أفرادا موجهين لخدمة الاقتصاد الرقمي، وفي أحسن الحالات مستهلكين نقديين.

إن غاية البيغ داتا "هي أن تغلق على الإنسانية داخل كون نفعي ومتحكم في كميته"[2]، لكي نستعير تعبير المؤرخ والأستاذ في كوليج دو فرانس مارك فيمارولي. إنه عالم غارق في زمن مباشر، تتابع للحظات موجهة إلى الاستهلاك. لقد كانت للإنسان دائما تجارب مختلفة مع الزمن، ولكن هذا الحاضر الذي نعيش فيه مختلف جذريا. وهذا ما لاحظه المؤرخ فرانسوا هيرزوك، أحد أفضل المتخصصين في اليونان القديمة، وهو الذي ابتكر عبارة "الحاضرية"[3]. لأن

---

(1) Moocs الموكس هو بوابة إلكترونية فرانكوفونية تقدم دروسا على الأنترنيت بشكل مباشر (المترجم).

(2) La vie algorithmique. Critique de la raison numérique, L'Echappée, 2015

(3) الحاضرية présentisme المشتق من الحاضر، والمقصود بهذا المفهوم هو أن الزمن فقد الكثير من سمكه وامتداده خلفا وأماما، لقد تحول إلى سلسلة من اللحظات المتتابعة التي لا تراكم خبرة أو معرفة، بل تنتشي بالماثل أمام العين بشكل مباشر، وستتخلى عنه العين بمجرد ظهور شيء جديد (المترجم).

الأمر يتعلق بـ"حاضر يريد أن يكون أفقا لنفسه، يريد أن يكون مكتفيا بنفسه. وبمعنى ما، فإن هذا الحاضر يتضمن في الوقت نفسه كل الماضي وكل المستقبل الذي هو في حاجة إليه. ويتميز أيضا بكونه حاضرا خالدا، أو بالأحرى حاضرا أبديا"[1]. إن الأفق الوحيد، داخل هذا السجن الزمني، هو اللحظة، أي لا شيء في واقع الأمر. وهو ما اختصره نيتشه في صيغة: "اللحظة: كان هنا، وها هو يختفي، عدم يسبقه، وعدم يليه". يتعلق الأمر باختفاء الزمن الخطي. فلا وجود في الويب لبداية ونهاية. لقد أعلَت البيغ داتا من شأن هيرودوت، مخترع التاريخ. فالذي نَظَم منذ ألفين وخمسمائة سنة أول محكي تاريخي للإنسانية لم يكن يريد فقط وصف أحداث، بل كان يريد" اقتفاء الخط الذي كان وراء هذه النتيجة الماثلة أمام أعين جميع الناس، كما يسجل ذلك روجي-بول دروت. قد يكون هيرودوت هو الذي سرَّب إلى الثقافة الغربية فكرة الاستمرارية، ذلك الوعي بأننا جزء من السلسلة ذاتها، تلك التي يرقد فيها كل الذين سبقونا، وهي المسؤولة عن الذين سيأتون بعدنا. إن اختفاء الإحساس بالتضامن تجاه أجيال المستقبل قد يكلف الفصيلة الإنسانية غاليا فيما يخص التغيرات المناخية.

إننا ونحن نلغي الكرونولوجية، ونمحو العلامات التاريخية، قد نأتي بحالة فيها خلط، أي عجز على خلق تراتبية في الأحداث. سيعيش المرء، وقد حُرم من عمق الزمن، داخل عالم ضحل، كل شيء فيه يوجد في المستوى ذاته، وكل شيء مساو لكل شيء. ولن تكون المدرسة هي التي ستأتي بالترياق، فقد تمت مقايضة التعليم

---

(1) «Les humanités au peril d'un monde numérique» Le figaro 31 mars 2015

الكرونولوجي للتاريخ بعرض ثيمي. فليس التاريخ هو ما لا قيمة له فحسب، بل إن المحكي ذاته آخذ في التفكك. لقد قتلت البيغ داتا هوميروس أيضا. لقد نحت الشاعر الإغريقي، من خلال الإلياذة والأوديسة، المحكي المؤسس للحضارة الغربية. لقد كان نصا في شكل عالم وكان يتضمن غاية تعليمية من أجل تكوين مواطنين، بناء الفرد والجماعة. لقد كان مدرسة للحياة. أما في الفضاء اللانهائي والعائم للويب، فليس لسهم كرونوس أي معنى. إن المحكي لا يتطور، إنه يتغذى من سعار فاقد للصبر.

لقد فقد الإنسان كل بوصلته، في الزمان وفي الفضاء أيضا. فعندما نبعث رسالة لا نكترث للمكان الذي يوجد فيه الآخر، فما هو أساسي هو أن نصل إليه. وابتداء من الآن سيكون مرشد (GPS) هاتفنا أو سيارتنا هو الذي يحدد لنا غايتنا وكيفية الوصول إليها. فكل شهر هناك مليار من البشر يسترشدون بخريطة غوغل لمعرفة اتجاههم. ومن منا لم يجرب على الأقل مرة واحدة في حياته أن يُسْلم قياده للمرشد، وعندما يصل إلى غايته، سيكون عاجزا عن تحديد هذا المكان على الخريطة؟ لقد أسْلَمنا قيادنا للبيغ داتا، فهي التي تقودنا وتوجهنا. وبفرط ما نوكل أمر بعض المهمات إلى غيرنا، سيفقد دماغنا شيئا من ذاته. والأمر يصدق أيضا على ذاكرتنا، التي تستعين بشيء من خارجها، وعلى حس الاتجاه. فدماغ سائقي التاكسيات في لندن، الذين يعرفون عن ظهر قلب تصميم المدينة بكل أسماء الأزقة، يَشكون في الكشف في جهاز الفحص بالصدى[1]، كما بينت ذلك دراسة شهيرة، من وجود تضخم في الدماغ خاصة

(1) IRM

المنطقة الخاصة بالذاكرة[1]، تلك المنطقة التي تتجمع فيها الذكريات، وهي التي تتحكم في التوجيه. إن الاستعانة المفرطة بالمساعدات على الإبحار ستغير إذن فيزيقيا من خيوط الأعصاب. ومع تقادم الخرائط المبرمجة سيختفي إرث الجغرافيين، إيراتوسفي[2] وبلطيموس[3]. فعلى امتداد قرون ساعدتنا الخرائطية والكرونولوجيا على إرساء دعائم فكرنا. فإذا حُرمنا من هذا المصباح فسيصعب علينا التعرف على العالم الذي يحيط بنا.

فإذا لم نعد قادرين على تحديد مكاننا، فلن نعرف أبدا إلى أين نمضي. هذا أمر ليس مهما، فالبيغ داتا ستعرفه بدلا عنا. إن جهازنا العصبي هو 4 ملايين مرة أقل سرعة من الشبكات الرقمية. وكما يقول لاري بيج، أحد مؤسسي غوغل: "إن الذهن البشري هو حاسوب عتيق في حاجة إلى معالج إلكتروني أسرع وإلى ذاكرة أوسع".

---

(1) hyppocampe لم أعثر على مقابل بالعربية لهذه الكلمة، وهي تعين في الطب منطقة في الدماغ تتعلق بالذاكرة (المترجم).

(2) Eratosthene جغرافي يوناني من القرن الثالث قبل الميلاد (المترجم).

(3) Ptolemée فلكي يوناني ومن المؤسسين للجغرافيا، عاش بين 90 و168 ميلادية (المرتجم).

مؤامرة 0 و 1

إن جيناتنا في نهاية الأمر هي ذاتها برمجيات معلوماتية"
ستيف جوبز مؤسس آبل

يواجه جيمس بوند في فيلم "الكازينو الملكي" ألَد أعدائه، الرقم. ويُعد عالم الرياضيات هذا، الذي أصبح بنكيا للجريمة، عبقريا للشر، ويشرح لنا ذلك بالقول: "إنه يؤمن بالمردودية أكثر من إيمانه بالله". فمن أجل أن ننزع عن العالم غطاءه المادي الذي يحيط بنا، وضعوا هذا العالم في أرقام، لقد سننوه بمقاطع من 0 و 1. وبفضل هذه اللغة الثنائية، يمكن للحاسوب أن يهضم كل شيء. تستند ذاكرة العالم الآن إلى سيليسيوم تُخزن فيها، في شكل 0 و1، الصور والنصوص والأصوات والفيديوهات. ففي نصف قرن تضاعف حجم التخزين 50 مليون مرة، في حين تنخفض تكلفته إلى النصف كل سنتين. لقد نجحت الثورة الرقمية، في نظر جيرار بيري، أستاذ المعلوميات في كوليج دو فرانس، فيما لم نكن نفكر فيه أبدا، "تمثيل كل المعلومات، كيفما كانت طبيعتها والتحكم فيها بطريقة منسجمة، وبذلك قطعت صلتها مع الترابط القديم بين نوع المعلومة والسند الفيزيقي". فمن أجل التهام العالم ثم هضمه، استعمل الغول غافا ال 0 و1 كأنزيمات. لقد كان الاستماع للموسيقى قديما يتم من

خلال فينيلات منقوشة على ميكروسيون[1] تُستنسخ بعد ذلك على شرائط تقيس استقطاب الجزئيات المغناطيسية، وكانت الصحافة تُقرأ على ورق ملطخ بالمداد، وكان التشكيل يُرى في لوحات، وكان يُحتفظ بالأفلام والصور في شرائط من السيليلوز ملطخ بمادة حساسة مضادة للضوء. أما الآن فكل شيء يستند إلى السند المرقم ذاته، يمكن حمله آنيا ويمكن استنساخه وتخزينه إلى ما لا نهاية.

لقد كان مصدر هذه الثورة هو بناء آلات قوية وغير مكلفة ومتصلة على المستوى الكوني. فهناك اليوم 10 ملايير حاسوب وسمارتفون ولوحات لمسية وموضوعات أخرى متواصلة تتبادل فيما بينها الدفق الرقمي دون توقف. يتعلق الأمر بأنابيب ضخمة صممتها البيغ داتا لكي يمر من خلالها هذا الذهب الأسود الجديد الذي يتشكل من 0 و 1. إن قوة الأرقام عند عمالقة الرقمية لا حدود لها. لقد تحايل غوغل لكي يتمكن من الإفلات من العقوبات المضادة للشركات الضخمة التي كانت تهدده بها بروكسيل فاختار اسما جديدا هو "ألفابيت". لقد استعملت ال 26 حرفا المكونة للأبجدية من أجل تسمية هولدينغ يغطي حاليا كل أنشطة المجموعة.

يتمتع العدد بكل المزايا. فهو قادر على عقلنة فوضى العالم. ففي 2010، خلق غوغل تخصصا علميا جديدا أطلق عليه "ثقافة جينوم" culturomique، وهو تداخل لكلمتين هما: "الثقافة" و"علم الجينوم". فما هي الغاية منه؟ هي أن تحل اللوغريتمات محل

---

(1) vinyles gravé sur des micosillons مادة توضع على الأسطوانة لكي تستقبل الأصوات (المترجم)

المؤرخين، فهم الذين سيحللون تطور الثقافة الإنسانية. وقد صمم فريق من المهندسين، فيهم لسانيون ورياضيون، أداة معلوماتية مخصوصة وذلك من أجل غربلة المكتبة الرقمية الضخمة لغوغل. تلتقط الحواسيب التي تعالج 4 في المائة من كل الكتب التي لم تُطبع أبدا في العالم، حوالي 500 مليار من الكلمات، تطور المعجم وأنماط التفكير على مر القرون، ثم تترجمها بعد ذلك في بيانات. لقد حلل غوغل مثلا استعمال كلمة "الله" من 1800 إلى 2000. والحاصل أن استعمال هذا اللفظ سيتراجع من 1860 إلى 1900، لكي يظل مستقرا نسبيا دون أن يتطور من جديد. فالمعنى، في منطق البيغ داتا، ينبثق من الكم. فكلما كانت هناك معطيات قابلة للغربلة، كانت هناك نتائج قد تصل إلى الكمال. وبذلك نُظر إلى الحقيقة باعتبارها موضوعية، لأنها حاصل معالجة لكتلة ضخمة من المعلومات. ويُضاف إلى هذا الهوس بالعدد الضخم استيهام حياد التقنية. يتعلق الأمر بوهم فقط، فاللوغاريتمات صممها رجال، فهناك إذن توسط الثقافة والسياسة والتجارة. ولكن هذا الانتظار يستجيب للحلم بعالم غير مجسد، دون موقف وبدون قناعات، أي بدون تفاعل بين الأفكار حيث يتصرف الناس دون شحنات انفعالية.

إن مصممي العالم الرقمي مقتنعون بذلك: إن الآلات أفضل من الإنسان. فالدماغ البشري بـ 100 مليار من النورونات التي تكونه لا يمكن أن يصل إلى حاسوب قادر على إنجاز مليون مليار من العمليات في الثانية. هذا بالإضافة إلى أنهم أعلنوا في هذا السباق المجنون للقوة أنه في 2018 ستظهر للوجود حاسبة قوية أُطلق عليها: Exascale، هي مليون مرة أقوى من سابقاتها. ويستنتج

المعلوماتيون الذين يشتغلون لصالح البيغ داتا من ذلك أن العالم يجب أن تحكمه الآلات. وهي فكرة مستوحاة من النظرية السبرانية[1] التي ولدت في سنوات الخمسينيات التي وفقها سيكون بمقدور الآلات، مثلها مثل الإنسان، بناء مجتمع عادل وهرموني. لا يتعلق الأمر عند السوسيولوجية سيلين لافونتين، بالإسراع فقط بإقامة مراقبة تقنية علمية للإنسان والطبيعة، "بل يجب أن نعيد النظر في الإنسان ذاته باعتباره المنسق العقلاني للعالم"[2]. حينها ستقود السبرانية، وهي "فن القيادة" بالإغريقية، إلى توكيل عدد كبير من المهام المعقدة إلى الحواسيب. ستقرر الآلات محلنا. إن الميدان المالي "المتطور"، يوضح هذا التخلي عن صلاحياتنا، وعن اختفاء الإنسان من سيرورة القرار. لقد أصبحت الحواسيب شيئا فشيئا هي ما يراقب قاعات السوق. ويتم اليوم ثلثا أوامر البيع أو الشراء في بعض الجلسات في وول ستريت من خلال لوغاريتمات. وقد تسببت هذه القرارات التي تُتخذ في جزء من الثانية أحيانا في كوارث، flash crashes، كما يطلق عليها. ففي ماي 2010 تبخرت 800 مليار أورو في بورصة لندن، لأن برنامجا إلكترونيا أعطى أوامر مزيفة بالبيع. إننا قد نفقد السيطرة على الآلات التي تراقبنا. وهو الأمر الذي أكدته استعانة الفاعلين في الأنترنيت بهذه اللوغاريتمات

---

(1) السبرانية cybernétique وهي فن التحكم وكان وراء ظهورها عالم الرياضيات الأمريكي نوربيرت فينر الذي كان يتصور إمكانية التحكم في سلوك الإنسان وتوجيهه. بل اعتقد بعض المتشددن من معتنقيها أن الإنسان خطأ طبيعي. (المترجم).

(2) L'empire cybernétique. Des machines à penser à la pensée machine, Seuil, 2004

للكشف عن التهديدات الإرهابية، وهو الأمر الذي سمح به القانون الأخير حول الاستخبارات الذي صوت عليه البرلمان في فرنسا. وقد منحوها نوعا من الاستقلالية، رغبة في الحصول على فعاليتها. لم يعد الأمر يتعلق ببرامج معلوماتية متحكم فيها، بل هي برامج تتعلم من تلقاء نفسها، وتولد من تلقاء نفسها قواعد بحثها وتصنيفها. وسيكون من المستحيل إذن معرفة المعايير المختارة من أجل تحديد سلوك "مشبوه"، ذلك أن الآلة تبلور هذا السلوك أثناء البحث. إنه نظام جاسوس إشكالي بالنسبة لمجلس الدولة، وقد عبر عن قلقه من ذلك في تقريره حول الرقمية والحقوق الأساسية، من "الثقة الزائدة في نتائج اللوغاريتمات التي يُنظر إليها بأنها موضوعية ولا تخطئ"، ودعا، بدون فائدة، إلى خلق "حق في اللوغاريتمات".

لقد تحولنا إلى عبيد للآلة التي بلغت حدا من الإتقان لا نعرف بالضبط كيف أصبحت تشتغل. إنها بالفعل "علب سوداء". إن المبدأ الذي يقوم عليه تبرير هذه الممارسات هو ذاته دائما: "مادمتم لا تقومون بسلوك مشين، فلا تخافوا أن نعرف عنكم كل شيء". والحال أن القضية تكمن في تحديد ما هو "مشين"، إنه تعريف لا يُدرك سره سوى الذين ينظمون ويصنفون ويعالجون المعلومات وفق معايير لا أحد يفرض عليهم الكشف عنها. وفي جميع الحالات، فإن تصنيف كل واحد يتم وفق منطق خاص بالآلة. وكما يشير إلى ذلك الفيلسوف إيريك سادان، وهو متخصص في التكنولوجيات الجديدة، فإن الأمر يتعلق بتلاشي استقلالية الإنسان وقراره، والحال أنه هو عصب الإنسانية الحديثة بإيتيقيتها ومسؤوليتها." و"بشكل أوسع، يتعلق بالفاصل الذي بدأ يتلاشى، هو الذي كان إلى حدود

الآن، يفصل بين الكائنات فيما بينها وبينها وبين الأشياء"[1].

ففي هذا الضغط الذي يجعل من العالم معطى أوليا وحيدا وكونيا، لا مكان للنقصان فيه. أي لا مكان للإنسان. والحال أن النواقص وأشكال الضعف والعيوب هي التي تشكل قوة الإنسان. إن دماغنا، على عكس الحاسوب، عاجز على تصور تأليفات إلى ما لا نهاية، إن قوة الحساب عنده محدودة وغير مؤكدة. وللتخلص من ذلك، اخترع الإنسان سبيلا معاكسا: الحدس. يتعلق الأمر بنمط من القرار يمنحه عبقريته ولا توقعيته في الوقت ذاته. والأمر يصدق على الذاكرة، التي هي ناقصة بالضرورة. وهذا أمر لا يُعجب المصممين الجدد للعالم. والحال أن النسيان ضرورة حيوية، وهو ما يغذي الذكاء الإنساني. ويذكر إدريس أبركان، وهو باحث في النوروتكنولوجيا في المدرسة المركزية في باريس بأن "دماغنا لم يصمم لكي يحتفظ بكل شيء. إن قوته الحقيقية تكمن في مرونته وقدرته على النسيان لكي لا يحتفظ سوى بما هو في حاجة إليه، ومناقضا للتجربة الماضية"[2]. فعندما يقوم غوغل وآبل وفاسيبوك وأمازون وعلي بابا وسامسونغ وميكروسوفت بجمع معطيات في يوم واحد ما يقوم به العالم الأكاديمي في 10 سنوات، فليست المعطيات هي التي تنقصنا، بل الأشياء التي لا يعرف الحاسوب كيف ينتجها: أفكار ومفاهيم وتخيلات". ووفق غاية تروم خلق حالة إتقان، تعدنا اليوطوبيا الرقمية من جانبها بذاكرة شاملة. بعبارة أخرى، إمكانية الاحتفاظ، داخل المصفوفة، بآثار كل الأفعال والممارسات.

---

(1) La vie algorithmique, op cit

(2) « La grande misère des doctorants », Lepoint.fr, 30 Aout 2015

وستكون بطبيعة الحال خدمة مؤدى عنها في مقابل ربح الفعالية. ستتذكر الآلة بدلا عنا لكي يتفرغ دماغنا، وقد تخلص من هذه المهمة، لمهام أخرى. ولكن ونحن نجعل ذاكرتنا في حاجة إلى شيء من خارجها، فإننا سنُتلف شيئا هو من طبيعة إنسانية، التخيل، لأن التخيل يقتات من معيش انفعالي نُقش في دماغنا. فما يشكل إنسانيتنا، هو بالضبط الوعي والأفكار والإبداع والأحلام. بالتأكيد، نحن في حاجة إلى المعلومة، ولكن شريطة أن نستخرج منها معرفة، وفي أحسن الحالات تلك الحكمة التي لا يمكن لأي لوغاريتم استخراجها. فالحاسبة الفائقة إكساسكال التي تستهلك من الطاقة ما يعادل ما تستهلكه مدينة من 30000 ساكن، لن تخترع أبدا النسبية وأن تكتب "الحرب والسلم" أو تلحن "الناي المسحور"، فهذه الأعمال هي نتاج دماغ إنساني يكتفي بطاقة هي مليون مرة أقل من طاقة الحاسبة المذكورة.

إن القوة الضاربة للدماغ البشري، في مقابل الحاسوب، هو طعم المخاطرة أيضا. وهذه المخاطرة التي تحاول البيغ داتا بكل ثمن تكميمها، ووضعها في إحصائيات ستقضي على غير المتوقع والعارض فيها. فغير المتوقع هو الشر المطلق. يحذر ماكييفيل عاهله في كتابه: أمير بيرسي كامب، قائلا: "فكل حدث كيفما كانت إيجابيته في البداية، إذا نحن لم نتوقعه ولم نجعل له موقعا في الحاضر ونحن نستعد له ونستبقه ونحياه قبل وقوعه، إن جاز القول، سيظل مصدرا للخطر"[1]. فبفضل المعطيات الأولية تتحكم المقاولات الرقمية في بالون الكريستال الذي يحلم به السياسيون. يجب أن

(1) Seuil, 2013

تكون المخاطرة مكممة أيضا، لأنها مدرة للمال عند البنكيين ووكالات التأمين والأسواق المالية. وهو طلب لا يتوقف عن النمو مع تزايد الأبعاد القانونية في المجتمع.

يكمن منطق البيغ داتا في تكميم وقياس وتعيين العالم من أجل معيرته. وهكذا، فإن أكثر من 90 في المائة من السمارتفونات مجهزة بنفس نظام الاستغلال، أندرويد، الذي صممه غوغل، واستطاعت آبل أن تبيع منه 500 مليون أيفون في العالم، بحيث إن أكثر من مليار من سكان الأرض استعملوا فايسبوك. إن الخدمات أو المنتجات ليست في حاجة إلى تكييف، أو إلى قليل منه، لأنها موجهة لمستهلك كوني. تشكل البيغ داتا المرحلة القصوى للعولمة. لقد سرَّعوا من وتيرتها بكثير من الحماسة، كما بينا ذلك، خاصة أنها ولدت فوق الأرض الأمريكية حيث مقرات أغلب عمالقة الرقمية. ويرى المؤرخ جان سيفيليان أن العولمة "هي إيديولوجيا تبلورت على صورة الولايات المتحدة. إنها نظرية خُلقت من أجل مجتمع تجاري وشفاف ومتحرك بدون جذور وبدون حدود وحيث المال مَلِك والدولة بعيدة"[1]. فباسم هذا البروفايل المعولم قبل غوغل في النهاية، بعد خضوعه لشروط السلطات الصينية، بما توده هذه الأمة، بما فيها أن يكون مقر تخزين معطيات مستعمليه في خواديم محلية. وهو ما يعني أن إمكانية استثمار نظام استغلاله أندروييد في السوق العالمية الأولى للسمارتفون كانت مغرية.

---

(1) Le terrorisme intellectuel, Perrin, 2000

يمكن وضع الإنسان في معطيات، كما هو الشأن مع كل ما يحيط به، ويمكن اختصاره في كميات قابلة للقياس وتغذيته بكيانات معلوماتية. لقد خلقت البيغ داتا، انطلاقا من المعطيات التي يتم تجميعها حول كل فرد، كائنات رقمية. إنها بدائل تتمتع بهويتها الخاصة. "فما هو مثير مع انتشار الشبكات الاجتماعية، هو بالتأكيد ظهور هوية جديدة، كما لو أن لكل واحد منا، الهوية المدنية، الرسمية، مضافا يتمثل في هوية رقمية، ميزتها، يا للمفارقة، أنها متعددة، فهي التي تُمكن من مضاعفة حضوره وإمكاناته في التدخل والتماس ضمن حلم للتشارك بدون حدود ولا معيقات. "لا علاقة لهذا بالهوية الثابتة التي نقدمها في الوثائق الرسمية"، كما كتب الفيلسوف روجي-بول دروات[1]. إن توق البيغ داتا إلى معرفة المزيد من الانتظارات عند المستهلك والإحاطة بسلوكه، دفعها إلى البحث عن شخصيتنا في بدائلنا. يُختصر الإنساني في سنن، ويتم تصنيفه في بروفايل من خلال معايير خاصة بالنظام نفسه. يمكن أن يتعلق الأمر بالدين والقناعات السياسية والمحيط العاطفي والعادات الجنسية، أو أكثر من ذلك بآرائه، على الأقل تلك التي يعبر عنها في مختلف الشبكات الاجتماعية. إنها معطيات تقود إلى تشكيل صورة مسكوكة، وهي بالتأكيد تقليصية.

فإذا كنا قد منحنا 0 و1 سلطة لا حد لها في تسنين العالم، فلأن ذلك كان في مقابل أن يجعلوه صافيا وقابلا للمعرفة. والحال أن الذي حدث هو تقليص رقمي. فعندما حولوا الواقعي إلى 0 و1،

---

(1) Monique Atlan, Roger-Pol Droit, Humain, op cit

فإنهم صنعوا لنا عالما ثنويا مبتورا من بعد أساسي، هو المحسوس. يتعلق الأمر بتبسيط يُحْرِمنا من عنصر أساسي في فهم الأشياء. فبزعمهم أنهم سيجعلون العالم أكثر معقولية بفضل الترابطات المحسوبة من خلال اللوغاريتمات، فإنهم لا يجيبون عن سؤال: "لماذا"، إن الأساسي عندهم هو "كيف". إنهم يتجاهلون الأسباب، لكي يهتموا فقط بالنتائج. إننا أمام "الحلولية"[1] التي أدانها الباحث الأمريكي إيفيجيني موروزوف، فهي جواب تقني خالص لا ينصب على جذور المشكل، بل يكسب مالا ويمكن التواصل حوله بسهولة. يجب دراسة "لماذا"، لأنها قد تقود إلى واقع معقد بنتائج مكلفة في المعالجة. وفي النهاية، لا تهم النتيجة المستترة وراء الآلة، إن الرقم يجنبنا وعثاء النقاش. إنه يُقصي قضية المعنى. إنه يضع القانون فوق كل شيء ويفرض علينا المعيار.

---

(1) الحلولية solutionnisme تيار فكري يقول بضرورة النظر إلى قضية ما من زاوية كونها قابلة للحل من الناحية التقنية، دون الاهتمام بالأسباب الواقعية التي كانت وراءها، ولا يأخذ في الحسبان الممارسات السابقة (المترجم).

إن المستقبل معادلة

"لا يرغب أغلب الناس في أن يجيب غوغل عن أسئلتهم،
إنهم يريدون منه أن يقول لهم ما هي الحركة التي يجب أن
يقوموا بها". إيريك شميدت الرئيس المير العام لغوغل.

يقول شرطي بصوت خارجي: "كنت من قبل أطارد المنحرفين، أما الآن فأنا ألقي عليهم القبض قبل أن ينتقلوا إلى الفعل". تُعد ميمفيس Memphis من أكثر مدن الولايات المتحدة التي تنتشر فيها الجريمة. تقدم I B M إشهارها في التلفزيون لكي تفتخر بفعالية برماجها[1] لتحليل الجريمة المسمى: بلو كراش Bleue Crush. عندما قررت البلدية سنة 2010 تقليص عدد شرطتها بـ 25 في المئة، فإنها عوضت ذلك بـ IBM. يتلقى رجال الشرطة الآن على هواتفهم المحمولة، وعلى حاسوب السيارة قبل أن يبدأوا عملهم خرائط تحدد مكان الجريمة المحتملة في 12 ساعة المقبلة. والأمر هو التركيز على المناطق الصعبة التي يدل عليها اللون الأحمر. لقد استولى بلو كراش، الذي صممه رياضيون ومهندسون في الإعلاميات متخصصون في البيغ داتا وأنتروبولوجيون، على كل أرشيف

(1) برماج logiciel

الشرطة المرقمن: تقارير حول التدخلات، محاضر، تقارير وتسجيلات هاتفية، وقامت لوغاريتماته بتصنيف الجرائم حسب التواريخ والأمكنة والنوعية. إنه يحين باستمرار قاعدة بياناته، فهو متصل 24 على 24 ساعة بالشبكة المعلوماتية للشرطة، ويطلع على العناصر الجديدة التي تلتقطها الشرطة، وعلى الصور التي تقوم الكاميرات الموضوعة في السيارة و500 أخرى منتشرة في المدينة بالتقاطها. يحسب بلو كراش احتمالية وقوع جريمة ما وفق منطق التكرار. فأمام نجاح برماجها الذي يَعِد بتخفيض نسبة الجريمة بتكلفة قليلة، سارعت IBM إلى تصميم صيغة أكثر فعالية هي بيردبول Predpol سبق أن استعملتها شرطة لوس أنجوليس وأطلانطا ونيويورك، وهي صيغة تأخذ اللوغاريتمات الآن داخلها في الحسبان تغيرات السلوك الناتجة عن المناخ، وأيضا بروفايلات الساكنة المصنفة ضمن المجرمين بذريعة التصنيف الإحصائي، ما يشكل أحكاما مسبقة لا يعيرها المدير السابق لقطاع العلم والتكنولوجيا في وزارة العدل الأمريكية أي اهتمام بحجة واحدة: "يمكن لهذه المعطيات الرقمية أن تتضمن أحكاما مسبقة، ولكن هذه الأحكام يمكن الكشف عنها بطريقة رياضية".

ويتهافتون اليوم في أوروبا على البرامج الخاصة بـ"الأمن الاستباقي" القادرة على معالجة المعلومات حول الجرائم القديمة من أجل تحديد أين ومتى ستتم الجرائم القادمة. فقد اشترته شرطة كانيت بريدبوت، وصمم باحثو المعهد التقني للتوقع في ألمانيا، من خلال النمذجة، برماجهم الاستباقي الخاص بريكوبس Precobs

الذي جرب منذ 2015 في ميونيخ ونورنبورغ وكولونيا، وأيضا في المدن السويسرية زوريخ وبال. ويتوقع المرصد الوطني للمنحرفين تجريب نظام لتوقع الجرائم في باريس الكبرى في سنة 2016.

وستقضي واشنطن سنة 2054 حسب مينوريتي روبورت Minority Report، وهو فيلم لستيفن سبلبيرغ مستوحى من قصة لفيليب ك ديك، على الجريمة بفضل بريكوج Precogs. ويتعلق الأمر بكائنات بشرية تتمتع بمعرفة استباقية، أي قادرة على التعرف المسبق على أحداث ستقع، وهو ما يمكن من القبض على المجرمين قبل القيام بجرائمهم. مينورتي روبورت هو حلم البيغ داتا. فهم يطورون في مختبرات أبحاثهم البريد بوت وبريكوبس[1] أخرى لكي يأتي يوم لن يكتفوا فيه بالقول أين ومتى ستتم الجريمة، بل أيضا من هو المجرم المحتمل.

ويفتخر نيت سيلفر، العبقري الأمريكي الصغير في التحليل الاستباقي، وكان مساعدا لباراك أوباما، قائلا: "إن المستقبل هو معادلة". يُعد السلوك الإنساني في الصناعة التكنولوجية في غالبه محددا بشكل مسبق أو متوقعا. ومن أجل التكهن به، لا يقرأ عرافو الرقمية اليوم الفنجان، بل يبحثون عنه في برمجيات معالجة المعطيات الضخمة. ففي سنة 2007 أطلق قسم الأمن الداخلي الأمريكي -ما يشبه وزارة مكافحة الإرهاب خلقها جورج بوش- مشروعا للبحث الغاية منه التعرف على "الإرهابيين المحتملين"، فهم أبرياء اليوم، ولكنهم مذنبون بالتأكيد غدا. وقد أطلق عليه FAST وهي "تكنولوجيا للكشف عن

(1) minority report, predpol, precops

الصفات المستقبيلة"، وكانت وظيفة البرنامج هي فحص كل العناصر التي تعود إلى سلوك فرد ما، وإلى لغته الجسدية وخصائصه الفسيولوجية. فعندما يتم التعرف على مشبوه، يقتفي الحاسوب أثره بفضل القدرة على التعرف على الوجه. وشيئا فشيئا تباشر كاميرات الحراسة "الذكية" تحليل سلوكه. إنها تتعرف على الحركات المشبوهة، ويصل الأمر إلى تحديد عناصر القلق عنده مثل التعرق. وفي لوتون، في الضاحية الكبيرة، يجرب البوبيس[1] ثماني كاميرات في الشارع تدق من تلقاء نفسها كلما اكتشفت سلوكا من السلوكات الخمسين المصنفة "مشبوهة" والمخزنة في قاعدة بيانات. وهناك في نيس 915 كاميرا ذكية تتجسس على الراجلين لكي تتعرف على شخص قلق أو متسمر في مكانه وسط الحشود. وإنديكت Indect هو اسم مشروع اللجنة الأوروبية الذي أطلق سنة 2011 من أجل "إيجاد حلول وأدوات للكشف عن التهديد". وكان هناك ما يقارب 17 فريقا للبحث وظيفتهم هي البحث، في اللوغاريتمات القادرة على الكشف في الوسط الحضري، عن "سلوكات غير عادية". إن الجري أو المشي عكس الحشود أو المشي السريع، الوقوف عندما يكون الجميع جالسا، ربط أحزمة الحذاء في متجر، التقاط صور في بهو مطار أو وضع قبعة على الرأس، كل هذه الحركات يعتبرها الحاسوب مشبوهة. ويُطمئن داريو غافريلا، المنسق العلمي، الناس باستعمال الحجة المعتادة: "النظام الآلي أكثر موضوعية وغير تمييزي من الفاعل الإنساني". ولكن هذا لم يمنع أنه بفضل كاميرات التحليل السلوكي ها هي اللوغاريتمات تفرض علينا سريا سننا جديدا في السلوك داخل الفضاء العمومي. فالذي لا يَـمْتثل له قد يكون محط شبهة في ذاكرة الحاسوب.

---

(1) Bobbie شرطي إنجليزي

وتذهب كتلة المعلومات التي يتم تجميعها إلى ما هو أبعد من التعرف الآني على الرغبات الحميمية للفرد. إنها تشكل مادة خصبة للتحاليل الاستباقية. إنهم يطمحون استقبالا، بفضل هذا النهج الجديد، إلى توقع الانحرافات والنوايا الانتحارية أو الإجرامية وفق فكرة أن الحالات السابقة التي تم رصدها من خلال علامات مولدة لمعلومات متواترة قبل وقوعها كانت نادرة.

وعلى شاكلة العالم الموصوف في فيلم مينوريتي روبورت، ها نحن ننزلق نحو تجريم النوايا، وهو توجه تبرره مكافحة الإرهاب. فردة الفعل الأمريكية التي بلورتها الناسا بعد 11 سبتمبر رفعت هذا الطابو. فباسم مكافحة الإرهاب، انتقلنا من مقولة "الذنب" إلى المقولة الذاتية وهي "التهديد". وهو مفهوم انتشر بسرعة. ففي فرنسا أدخل آخر قانون ضد الإرهاب مثلا "جريرة نوايا إجرامية". فمن الممكن الآن تقديم فرد ما أمام المحاكم اذا اكتُشفت عنده نية القيام بعملية إرهابية. لقد انتقلت العدالة نحو التكهني، لأن هناك اعتقادا أن الأداة البيغ داتا تسمح بذلك. إننا لا نعاقب على الجرم، بل على النية. حينها سيكون الإغراء كبيرا من أجل تعبئة كل المعلومات الرقمية المتوفرة للعثور على متهم. ألم يتحدث وزير الداخلية بيرنار كازنوف، من أجل الدفاع عن القانون حول الاستعلامات، عن وجود علامات على سلوك إرهابي تم الكشف عنه أوتوماتيكيا من خلال الآلة؟ لقد سقط أساس القانون الجنائي الذي يحدد الذنب اعتمادا على أدلة ملموسة. وقد عبرت ميراي دالماس ماري، المبرزة في القانون الخاص وعلوم الإجرام عن قلقها قائلة: "فعوض

الانطلاق من الهدف للحصول على المعطيات، أصبحنا ننطلق من المعطيات للوصول إلى الهدف. إن مصدر الخطورة هو توقعات حول المستقبل"[1].

إن عصر الشك الذي أدخلتنا فيه البيغ داتا كان من المفروض أن يجعلنا نتعافى من لا استقرارية العالم. والحال أن العكس هو الذي حدث. فالولايات المتحدة التي حولته إلى مختبرات لأمنها هي أكثر بلدان الأرض عنفا. فقد سجل في النوفيل أورليان وحدها بساكنتها 400000 92 جريمة قتل في الفصل الأول من 2015، ما يعادل مجموع الجرائم التي ارتكبت في منطقة باريس بسكانها المليونين على امتداد سنة 2013 بأكملها. فنسبة الجرائم التي لا تتوقف عن الارتفاع هو 40 مرة أكثر منه في باريس. ولطمأنتنا، تقترح علينا الشركات الرقمية أن نلغي من حسابنا الخطر المتولد عن هذه اللااستقرارية، وذلك بفضل اللوغاريتمات التي يحصلون منها على مداخيل مهمة... وهو ما تحذر منه ميراي ديلماص-ماري: "يُعتبر الزعم أن التكهن بلحظة المرور إلى الفعل، والكشف عن النوايا، شكْلا من أشكال التخلي عن الإنسانية، لأن خاصية الإنسان الأساسية هي التردد: بدون تردد لن نكون مسؤولين عن أي شيء".

لقد أصبح بيع الاستباق هو تجارة البيغ داتا. ويستعمل غوغل أيضا محركا للبحث مهمته هي الكشف السريع عن البؤر الساخنة. فبعد أن قام بـ 500 مليون عملية حسابية تمكن من التعرف على 45

---

(1) «La démocratie dans les bras des big Brothers», Le monde 6 Juin 2015

كلمة مفتاح يكتبها المبحرون باستمرار في المناطق التي تنتشر فيها الأوبئة، واستطاع محللو شركة مونتين فيو تصميم لوغاريتم قادر على التعرف على بؤرة وبائية في حي أو مدينة قبل أي كان. إنها معلومات ثمينة بالنسبة لصانعي الأدوية الذين يستطيعون من خلالها تزويد الصيدليات بالأدوية في اللحظة المناسبة. ويوسع غوغل من استباقاته لتشمل العقار أيضا. فمن خلال غربلة سلوكات البحث عند المبحرين، سيكون المحرك قادرا على تحديد تقلبات الأثمنة طوال الأشهر المقبلة بسرعة وفعالية أكبر من فعالية الجمعية الوطنية للوكالات العقارية في الولايات المتحدة. إنه فن تكهني يُدر أموالا على منصة الإعلانات العقارية أوكسيون.كوم (auction.com) الذي اشترته ب 50 مليون دولار. وبالمثل هناك باحثون في المعلوميات في جامعة بيرمينغهام في بريطانيا يفتخرون بأنهم قادرون على التكهن، انطلاقا من معطيات الاقتفاء في السمارتفون، حيث يتم التعرف على مكان أي كان في 24 ساعة القادمة، بنسبة خطأ لا تتجاوز 20 مترا. وهو ما يعني أن نبيع لصاحب متجر توقع مرور زبون مهم أمام الواجهة في اليوم الفلاني على الساعة الفلانية. وتؤكد كيرا راينسكي أنه "من أجل الربح يجب أن تكون سابقا بستة أشهر". وتدعي هذه الرياضية الإسرائيلية التي يطلق عليها "دلفية الويب"[1]، أنها قادرة استنادا إلى اللوغاريتمات التي صممتها التكهن بـ 90 في المائة من الدقة انهيار سوق مالي، أو حدوث أعمال شغب. وتقدم يوميا

---

(1) إشارة إلى عرافة ديلفي عند اليونان التي كان يستشيرها الناس في أمور غريبة أو ما يودون معرفته عن مستقبلهم (المترجم).

شركة ساليس بريكيت، التي تملكها، سبقا تسويقيا إلى المؤسسات الكبرى في كل الميادين.

يتوجب على البيغ داتا، من أجل إضاءة الكرة البلورية[1]، التخلص النهائي من التردد في معيشنا اليومي. "والغاية من ذلك هو القضاء على الحظ من أجل بناء عالم سعيد كليا ونهائيا". وقد أعلن الفيلسوف روجي بول-دروات: "أن الأفق الذي نحلم به هو الأفق الذي يتم فيه التحكم في الحظ ومراقبته أو القضاء عليه نهائيا"[2]. والحال أن الرغبة في إلغاء الحظ بأي ثمن، معناه، مرة أخرى، المجازفة بالقضاء على نصيب الغامض الأساسي في الإنسان. إن الذهن البشري يغتني بغير المتوقع. وفي التاريخ، ما كان لأغلب الاكتشافات أن ترى النور لولا الحظ، ابتداء من اكتشاف أمريكا الذي يعود إلى كرستوف كولومبوس. وسيكون أليكساندر فليمنغ أيضا هو الذي سيدرك أن تعفنا ما، سيطلق عليه البنيسلين، قد قتل العنقوديات التي كانت تنمو داخله. والفيزيائي هنري بيكات الذي لاحظ، وهو يرش ملح الأورانيوم على لوحة فوتوغرافية، أنها طبعت كما يمكن أن يفعل ذلك نور الشمس، حينها سيكتشف النشاط الإشعاعي. إن تطور الفصيلة البشرية ذاتها هو سلسلة من الصدف غير المتحكم فيها. فعندما تتآلف سنن جينات عائلتين، يكون من الصعب التكهن بالنتيجة. العكس هو الذي يحدث مع الدقة الرقمية التي تتحكم فيها 0 و1. ألا تصر هذه الأرقام على أن

---

(1) الكرة البلورية boule de cristal بالون من زجاج يستعمله العرافون في توقعاتهم وتكهناتهم، كما نستعمل نحن أوراق اللعب أو الفنجان (المترجم).

(2) La philosophie ne fait pas le bonheur.... Et c'est mieux, Flammarion, 2015

نضع في معادلة المصدر الرائع للحظ الذي هو لقاء بين كائنين إنسانيين؟ "الحب ليس وليد الحظ"، بهذا يعدنا برومو بارشيب الذي يقترح علينا العثور على أشخاص تتوافق معنا كليا. إن استعمال بارشيب parship أو إ-دارلينغ edarling أو أي تطبيق آخر للقاء مع الآخر يتم عن توافق سيعطي ما يلي: عند مغادرتك لاجتماع الإدارة، يرن هاتفك المحمول لكي يشير إليك أن فتاة أو فتى "في متناولك" يتطابق بدقة مع انتظاراتك يتناول قهوة في رصيف مقهى ليس بعيدا عنك. حينها تلغي غذاءك من أجل مقابلته.

إن اللوغاريتمات هي التي تقرر الآن في طبيعة علاقاتنا. إنها إيديولوجية الشبكات "الاجتماعية" من مثل فايسبوك الذي صمم لوغاريتما إيدج رانك Edg Rank لكي يحدد حالات التوافق بين الأعضاء. وقد شرح مؤخرا مديره في فرنسا، لوران سولي، أن أهمية فايسبوك هو أنه يمكن من "فتح حوار مع أناس أو مؤسسات قريبة منكم". مع اختلاف بسيط: بقدر ما تتحاورون مع الذين يشبهونكم فقط، فإن تفاعل الأفكار يتحول إلى فراغ، والأذهان تنغلق والأفكار تتكلس، يتحول الأنترنيت كمكان للحوار إلى وهم. إنهم يبيعوننا حدا أدنى من الوقت مقابل كم كبير من الفعالية. الأساسي هو أن تكون فعالا. ويشرح إسماعيل قاداري حول كتابه "قصر الأحلام" قائلا: "كنت أرغب منذ مدة في بناء جحيم". في عالم متخيل، هناك إدارة دائمة الحضور تجمع ليل نهار أحلام السكان، وتغربلها وتصنفها وتؤولها لكي تتعرف على مستقبل المملكة. إننا نتنازل للبيغ داتا عن سلطة بلا حدود لكي تقرأ أحلامنا وترى مستقبلنا.

أسياد الزمن

"إن العلم على مشارف خلق كارثة، إنه يخلق إنسانيتين تتطوران بشكل مختلف لأول مرة في التاريخ البشري"[1]

له رأس مخطط بالأبيض والأسود مع علامة صفراء فوق عينيه، وتهتم به وزارة الدفاع الأمريكية بشكل كبير: إنه طائر الشرشور. فمن ميزات هذا الطائر، ذي الحلق الأبيض وبريش يزن 30 غراما ويعشش في غابات أمريكا الشمالية، أنه يظل يقظا لمدة 7 أيام عندما يقوم برحلته. ويحاول العسكريون معرفة سر هذا التحمل بغاية خلق جنود لا ينامون ويظلون جاهزين لأكثر من 24 ساعة.

إن التغلب على النوم هو من انشغالات البيغ داتا التي تتعاون مع البينتاغون في الكثير من مجالات البحث. يعد نومنا عند الشركات الرقمية الكبرى وقتا ميتا، فهو خارج الاتصال ولا يُدِر أي ربح. إن النوم يسيء للمردودية والإنجاز والاغتناء، ذلك لأن الفرد حتى وإن لم يشتر أي شيء، فإنه مع ذلك يضخ معطيات شخصية يمكن أن تكون مربحة. لقد أحدث أسياد البيغ داتا حالة أرق معولم. فبفضلهم يمكن أن نتبادل ونتسلى ونناقش ونتبادل أخبارا ونستهلك

---

(1) Israël Nissad, professeur de médecine, obstétricien, décembre 2013

في أي ساعة من ساعات النهار والليل. فكل سنة تذوب ساعات نومنا كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس، ففي 20 سنة فَقَد الفرنسيون في المتوسط 18 دقيقة من الراحة يوميا. إن تقليص ساعات النوم مرتبطة بشكل مباشر بتطور الرأسمالية في ارتباطها بالتكنولوجيات الجديدة. ففي صيغة " 7/24 تنقض الرأسمالية على النوم"، وقد انتفض الكاتب الأمريكي جوناتان كراري ضد عصر "مفتوح 7/24" الذي جعل منا عمالا ومستهلكين نشيطين على الدوام: "إن تخصيص زمن للراحة والتجدد الإنسانيين يكلف غاليا حاليا، لذلك لا يمكن أن يستمر في الوجود داخل الرأسمالية المعاصرة". ويضغط على الجرح قائلا: "فقضاء المرء لجزء من حياته نائما، أي يتخلص من مستنقع الحاجات التافهة، هو إحدى الجبهات التي على الإنسان أن يواجه من خلالها الشره الرأسمالي المعاصر"[1]. قد يصبح النوم حالة شاذة، فالنشاط الفائق والدائم هو المعيار الاجتماعي، يجب أن يعيش المرء حياته ضمن دفق مستمر، يجب استثمار كل اللحظات. يجب ملء كل لحظة يقضيها المرء في طابور أو على رصيف الميترو أو بين موعدين. وستساعدنا الموضوعات المتصلة والتطبيقات المتنوعة التي ابتكرتها الصناعة الرقمية على ذلك لكي يُحتفظ بنا في السوق. وهي أدوات الغاية منها مضاعفة إنتاجية العمل. فباسم هذا الهوس الذي يريد أن يجعل للزمن مردودية موجهة للمؤسسة، تصور آبل وفايسبوك خدمة خاصة بتجميد بويضات عمالهم. يتعلق الأمر بإعطاء النساء إمكانية تأجيل الحمل

---

(1) La découverte, 2014

إلى ما بعد الأربعين للاستفادة من عملهن. وهناك تأمين بـ 15500 أورو ستقدم لتغطية مصاريف خاصة بالحمل بمساعدة طبية قد يقتضيها حمل متأخر، وهي مبادرة صفقت لها النسوانيات. إن الغاية هي امتصاص طاقة العمال وإنتاجيتهم وهم في قمة قوة عملهم، أي في قمة قدراتهم الفكرية.

ومن ذلك تَرْشح أيضا الفكرة القائلة بأن مصدر تحسين الكائن البشري يوجد في التكنولوجيا. وهكذا لن يثير المرض والشيخوخة والموت ذاته أسئلة ميتافيزيقية، فتلك قضايا تقنية يمكن التغلب عليها بفضل المزج بين البيولوجيا والإعلاميات. فالمرة الأولى التي جرب فيها غوغل فتح باب عالم البيوتكنولوجيا كان ذلك من أجل تحسين قوة محرك البحث عنده. لقد كانت الشركة تبحث عن استنساخ اشتغال الشبكات العصبية في حاسوب من أجل خلق برنامج يتعلم من تلقاء ذاته. ويختصر أحد الرواد الفرنسيين في تتابع الجينومات، لوران أليكساندر، رؤية البيغ داتا قائلا: "سيكون إنسان المستقبل شبيها بموقع إلكتروني، وسيظل دوما صيغة من بيتا Beta، أي جهازا أصليا محكوما عليه بالتحسن الدائم"[1]. تعتقد البيغ داتا، وهي من أسياد الزمن، أنها قادرة من الآن على تمديد الحياة. وقد صرح في يوليوز 2014 لاري بيج أحد مؤسسي المحرك أن "غوغل يريد القضاء على الموت". لقد خلق شركة في كاليفورنيا لايف كومباني Life Company، وخطتها هي تمديد الأمل في الحياة بـ 20 سنة إلى حدود 2035، من خلال محاربة الأمراض قبل أن يكون

---

(1) «Google et les transhumanistes », Le monde, 18 avril 2013

هناك أي عرض على وجوده؟ وتعكف كاليفورنيا لايف كومباني على تصنيع أقراص تحتوي على جزيئات متناهية الصغر[1] الغاية منها الكشف في الدم عن علامات بيولوجية كميائية تُعد مؤشرات على احتمال وقوع ذبحة صدرية أو سرطان. فعندما يتم الكشف عن مشكلة ما ينذر مستعمل النظام بإشارة فلورية[2] تظهر على سوار. ومن أجل توسيع هذا التشخيص الاستباقي على كل الأمراض وتحليل الخلايا، جهز غوغل اللاقطات بـ 10000 متطوع كانوا قد خضعوا لتحديد تتابع الجينوم عندهم. وتأمل الشركة كما تقول، من خلال هذه المعطيات الطبية التي تم تجميعها، "التعرف على الإشارة السحرية التي ستكشف لنا ما نحن في حاجة إلى معرفته للوقاية والعلاج"[3]. وتنوي الشركة، التي وقعت حديثا اتفاقا مع بيوجين، العملاق الأمريكي في البيوتكنولوجيا، الاستيلاء على السوق المستقبلية للتوقع الجيني. وقد ضخ صندوق استثمارها، الذي يتصرف في ملياري دولار ثلثه موجه للصحة، مالا في شركات للتحليل الجيني الذي أطلقته زوجة أحد الرئيسين. فانطلاقا من عينة من الريق يشتري الزبون الذي يستعين بشركة 23 آندمي[4] احتمالية أن يصاب بالزهايمر أو باركينسون، ويتم تقدير ذلك وفق بروفايله الجينومي الخاص. إنها معطيات

---

(1) nanoparticules

(2) فلورية fluorescente

(3) «La médecine du futur, c'est le suivi continu des données du patient» , Le monde, 25 avril 2015

(4) 23 and Me يتعلق الأمر بشركة متخصصة في البيوتكنولوجيا تقترح على زبائنها القيام بتحليل لسننهم الجيني مقابل أجر محدد (المترجم).

جينومية فردية تم الحصول عليها بالمجان وبدأت 23 اندمي تبيعها ابتداء من 2015 إلى شركات الصيدلة، ولا شيء يمكن أن يمنعها من تفويتها إلى شركات تأمين ستُكيف "العلاوة على المخاطرة" وفق البروفايل الجيني لزبنائها.

غوغل X لاب[1]، هو مختبر سري للشركة يوجد بالقرب من مقرها الاجتماعي في مونتين فيو في جنوب سان فرانسيسكو، وهي منطقة خاصة بـ الناسا التي اكترتها الشركة المتعددة الجنسيات لمدة 60 سنة. وقد تم انتقاء 150 مهندسا بيولوجيا وطبيبا ومتخصصا في علم الجينات بعناية ويشتغلون بعيدا عن العيون، فليس مسموحا لأي أجنبي الدخول إليها، خاصة الصحافيين منهم. فهنا في قسم علوم الحياة يرسم غوغل إنسان الغد، الإنسان الذي يعملون على الإبطاء من إيقاعه البيولوجي. وفي انتظار اختراق آليات الشيخوخة تتمنى الشركة الاستيلاء على السوق المستقبلية للصحة الإلكترونية، وهي ثروة تُقدر بـ10000 مليار دولار يتربص بها آبل وميكروسوفت وفايسبوك وأمازون. إنه طب المستقبل ستقترح فيه اللوغاريتمات التشخيص وهي التي تحدد العلاج. واليوم تستطيع برمجيات من مثل واتسون تشخيص بعض السرطانات بفعالية أكبر من فعالية المتخصصين في هذا الداء، وIBM هي التي تحدد سعرها لمهنيي الصحة. وغدا سيحل الدكتور واتسون محل الأطباء.

---

(1) google x lab شركة أمريكية كانت في ملكية غوغل ويوجد مقرها في مونتين فيو ولها فروع أخرى في أماكن سرية (المترجم).

ولكن طموح البيغ داتا غير المعلن عنه كليا هو أن تكون قادرة في يوم من الأيام على بيع نقط حياة إضافية للذين يملكون المال. إنه غرال[1] سيكون ثمنه غاليا للأوليغارشية العالمية الجديدة. وستكون نقط الحياة هي الترف الأقصى، فهو أفضل من اقتناء ساعة يدوية بمليون دولار، أو شراء يخت 170 متر، أو تحويل طائرة 747 إلى جيت خاصة، أو التسلية بالقيام بجولة في الفضاء مقابل 200000 ألف دولار. لقد نجحت البيغ داتا في أبحاثها حول الطب الانبعاثي في جمع أكثر من مليار دولار كأموال خاصة. ودشن غوغل، هو الذي يتوفر على سيولة ضخمة، سوقه بتوظيف أحسن المتخصصين العالميين في الشيخوخة. إنها المرحلة الأخيرة في سيرورة الاستحواذ. فبعد أن وُضع جزء كبير من الثروة الإنسانية بين أيدي حفنة من الأشخاص، ها نحن نعاين انهيار آخر أشكال المساواة المتبقية، وهي ثروة الإنسانية في مواجهة الموت. حينها سنكون أمام اللامساواة المطلقة. وقد حذر الأستاذ الكبير في الطب إسرائيل نيساند، طبيب النساء ومؤسس المنتدى الأوروبي للبيوأخلاقيات قائلا: "إلى حدود الآن، كان تقدم المعارف يسعى إلى تطوير الإنسانية كلها. وهكذا، فإننا ربحنا جماعيا ثلاثة أشهر في السنة من الأمل في الحياة في الثلاثين سنة الأخيرة. واليوم هناك مليارديرات أغنى من الدولة يواصلون حلمهم البروميثيوسي. فإذا أصبح العلم في خدمة مجموعة من الأفراد، عوض أن يكون في خدمة

---

(1) غرال graal هو كأس يعِد بكل غنى الكون كان يبحث عنه فرسان الطاولة الدائرية (المترجم)

الإنسانية، فإن الإنسانية ستنقسم إلى فصيلين، لا يتطوران بالطريقة ذاتها. إننا نغير من مصير البشرية"[1].

لقد أحست البيغ داتا وقد انتشت بقوتها الجبارة بنوع من العجرفة. إنه زهو لا حد له يغذيه القانون الشهير لمور Moore. ففي تصور مور، أحد مؤسسي إنتيل، والذي فرضه في 1960 في البدايات الأولى للإعلاميات، فإن قدرات الحساب عند الحواسيب وقدرات المعالج ستواصل تطورها كل 18 شهرا. كما لو أننا ابتكرنا ثقبا أسود رقميا يبتلع المادة التي تحيط به لكي يحولها إلى 0 و 1، وستعمل على تفتيت تعقيدات العالم، بما فيها دورة الحياة والموت ذاتهما. وقد صرح إيريك شميدت في محاضرة ألقاها في أكتوبر 2012، وكان حينها مديرا تنفيذيا لغوغل: "أعتقد أنه سيكون بإمكاننا إذا نحن أعددنا أنفسنا جيدا، معالجة كل مشاكل الكوكب الأرضي"؟ لقد كانت العجرفة جريمة كبرى عند الإغريق القدامى. فالمرء يطلب أكثر مما يسمح به القدر، إنه بذلك يُخل بنظام القدر. إنه يود امتلاك أفضل الأسهم: السعادة والثروة والحياة. يتعلق الأمر بالمبدأ القائل: "دائما المزيد من كل شيء" لأغاميمنون، القائد العام للجيش اليوناني، الذي سيجلب شرهه مآسي كثيرة لشعبه في حرب طروادة التي ترويها الإلياذة. إنه "المزيد من كل شيء" ذاته الذي أطلقته البيغ داتا في سباقها المجنون، وهي العجرفة التكنولوجية أيضا الهادفة إلى الدفع بحدود الممكن إلى التراجع، بما فيها حدود الموت. ويذكرنا جاك إيليل وهو سوسيولوجي وأكبر المتخصصين

(1) « La science est sur le point d'engendrer une catastrophe » Le point, 19 décembre 2013

في استبدادية التكنولوجيا، "أن تثبيت الحدود هو ما يشكل المجتمع، وهو ما يشكل الثقافة أيضا"، فعندما تعلم الإنسان كيف يكون حرا، حينها كان قادرا على إدراك حدوده"[1]. وليس من باب الصدفة أن تكون الإلياذة والأوديسة محكيان مؤسسان للحضارة الغربية، فهما ما بذر القيم الكونية. لقد رفض البطل الخلود لكي يحافظ على إنسانيته. لقد عرضت الحورية كاليبسو على عوليس "ما لم يتمتع به أحد من قبل": الشباب الدائم، فقد كانت تريد أن تحتفظ به إلى جانبها. ولكن البطل الإغريقي رفض أن يظل أسير حاضر أبدي، أسير زمن متكلس خارج المحكي، حيث الاختيارات لا قيمة لها والشجاعة بلا معنى، وحيث الغاية الوحيدة هي طول العمر. فعندما اختار عوليس النهاية، وعندما رفض غطرسة الخلود أنقذ هويته. هوية كائن إنساني يعي ما هو عليه بضعفه الذي هو مصدر قوته أيضا.

إن ضياع القياس توقا للخلود هو ذا الخطر المميت للإنسانية الذي يدينه إسرائيل نساند: "ستتمتع أقلية من الناس بهذا الامتياز المفرط، وهذا سيغير من الإنسانية كلها، لأنها قد تفقد الإحساس بالنهاية الذي كان هو المحرك المركزي للتقدم. فلكي يتجاوز الإنسان ضعفه كان يستبق قدره، فهو الوحيد القادر على ذلك، فالقدرة على الاستباق هي التي جعلت منه الكائن الوحيد على الأرض الذي يدرك أنه سيموت"[2].

---

(1) « Jean –Luc Porquet , Jacques Ellul : L'homme qui avait (presque) tout prévu, Cherche –Midi , 2012

(2) « La science est sur le point d'engendrer une catastrophe » Le point, 19 décembre 2013

لا تكتفي البيغ داتا بالزعم بأنها ستقضي على الموت، بل تريد تصنيع إنسان جديد من خلال تهجينه ومزجه بالآلة. والغاية من ذلك هي الإعلان عن كائن مَزيد، بقدرات جسدية وفكرية "فوق إنسانية". وقد قام العسكريون بالخطوات الأولى نحو "الإنسان المزيد". فالبنتاغون منهمك الآن على صناعة هياكل خارجية من أجل خلق جنود فائقي القوة. وهكذا، فإن المشاة الأمريكيين يجربون تركيبة هاي تيك، ما يشبه جلدا ثانيا مصنوعا من نسيج ذكي يحاكي اشتغال العضلات وروابط الأرجل لكي يكونوا قادرين على حمل أكثر من 50 كيلوغراما من الأمتعة لمسافة طويلة. فقد أطلقت الداربا DARPA، الوكالة المكلفة بتطوير التكنولوجيات الجديدة الموجهة للاستعمال العسكري، تلك التي كانت وراء ظهور الأنترنيت، تصنيع سلاح حربي تكتيكي مصفح بنانوتكنولوجيا لتزويد الفرق الخاصة بقوة "فوق إنسانية". وقد قال باراك أوباما بحماسة في 25 فبراير 2014 أثناء عرض عمومي للمشروع في البيت الأبيض: "نحن نصنع الآن إنسانا من حديد"[1]. وسيمكن هذا السلاح المارينز الأمريكي من حمل أكثر من 100 كيلوغراما، وسيفعل ذلك بغطاء من الواقع المزيد والذي أُطلق عليه "تالوس"، وهي إحالة على تلك الآلات البرونزية التي استعان بها زيوس لكي يحمي عشيقته أوروبا. وداربا هي أيضا التي ابتكرت، بمساعدة مؤسسة خاصة في البيوتكنولوجيا، أول ذراع اصطناعية مراقبة من طرف ذبذبات عصبية. وقد استثمر البنتاغون كثيرا في الأعضاء الاصطناعية الذكية من أجل التخفيف

---

(1) iron man

على الجنود المصابين في حروب الخليج والعراق وأفغانستان. فبإمكان هذه الذراع، وهي تحفة تكنولوجية يتحكم فيها الدماغ بشكل مباشر، القبض على بيضة دون تهشيمها. وستكون الأعضاء الاصطناعية، ذراع أو رِجل، هي التباشير الأولى للمزج بين الإنسان والآلة، وذاك ما يريده العاملون في الحقل العابر للإنسانية، هذا التيار الفكري الذي رأى النور في وادي السيليكون. إنه مستقبل لا ريب فيه حسب أصحاب هذه النظرية، إنه ممكن من خلال التلاقح بين الروبو والبيوجينتيك والنانوتكنولوجيا وعلم الأعصاب والإعلاميات. إن نقطة الانطلاق هي الاتجاه نحو ما يسمونه "الفرادة التكنولوجية"، تلك اللحظة الافتراضية التي سترى النور في 2040 حيث سيتجاوز الذكاء الاصطناعي ذكاء الإنسان. ورسول هذه النظرية هو المدير الحالي للبحث والتطور في غوغل. ففي 2012، التحق راي كورزواي، الذي يعتبر من ألمع الباحثين في الذكاء الاصطناعي، بمختبر غوغل لكي يقوم بالتنسيق بين الأبحاث حول شبكات الأعصاب الاصطناعية التي تحاكي اشتغال الدماغ البشري. فتحت إمرته أنفق غوغل في ستة أشهر ملياري دولار لشراء 8 شركات متطورة في الذكاء الاصطناعي.

وضاعفت آبل من جهتها أربع مرات من موظفيها في هذا القطاع، فقد وظفت في 2015 فقط 86 باحثا متخصصا في الحواسيب التي تتطور بالتعلم. وهناك من بدأ يتصور حاسوبا "بيولوجيا" يشتغل بالكود الجيني للكائن الحي. وهناك 15 مختبرا موزعا في أنحاء العالم يجرب حاليا معالجا حيث تمتزج مادة السيليسيوم بمليارات

الجزيئات من الحامض النووي. ويجب أن تمكن هذه التركيبة بين الدماغ والآلة الحاسوب من برمجة نفسه دون توقف، وبهذا يزيد إلى ما لانهاية من قدراته إلى أن يتجاوز قدرات الدماغ البشري الذي يقف عند حدود 100 مليار من النورونات. ويؤكد لاري بيج: "بالتأكيد إذا كنتم تمتلكون كل المعلومة حول العالم مباشرة باتصال مع دماغكم، أو مع دماغ اصطناعي أكثر ذكاء من دماغكم، فستكونون في حالة أحسن"[1]. ففي فجر الحواسيب البيولوجية، لن يكون لمادتنا الرمادية أي قيمة. ذلك أن دماغنا الذي ينفق وحده 30 في المائة من طاقتنا، لن يكون قادرا على المنافسة، فعمرنا قصير ومرتبط بزمن بطيء للتعلم. ففي تصور المتخصصين في ما عبر الإنسانية، سيكون جهازنا العضوي حاسوبا قديما. فبمجرد ما يمتلأ القرص الصلب، فإن الوحدة المركزية تنتابها الشيخوخة.

إن الوسيلة الحقيقية التي تمنح أعصابنا مردودية هي إدماجها في السيليسيوم. فلماذا لا نعمل إذن على مضاعفة قدرات ذاكرتنا؟ يسمى هذا المشروع رام RAM (استعادة الذاكرة النشيطة)، فهو إحالة غير صريحة على الذاكرة الحية للحاسوب. وقد دشنته داربا، وكان الأمر يتعلق رسميا باستعادة ذاكرة الجنود ضحايا رجة دماغية بواسطة زرع أعصاب تساعد الدماغ على تسنين ذكريات جديدة. وتشرح وكالة البحث، في وثيقة تعود إلى نوفمبر 2013، أنه من خلال تحفيز بعض المناطق في الدماغ، فإن ما يتم زرعه فيها يمكن

---

(1) Ariel Kyrou : Inculte, google god big brother n'existe pas, il est partout, 2010

أن يستعمل من أجل تحسين قدرات التعلم والرفع من سرعة رد الفعل، بل واستثارة بعض العواطف.

يحلم المتخصصون في العبر إنسانية، مأخوذون بغطرستهم، بزرع دماغ في حاسوب. "سيكون تفكيرنا مزيجا من أفكار بيولوجية وغير بيولوجية. سنمتزج تدريجيا ونتحسن"، كما أعلن عن ذلك مؤخرا راي كورزواي الذي ابتكر، من أجل نشر أفكاره، "الجامعة الفريدة". ومن الممولين لهذه الجامعة الغريبة هناك أسياد البيغ داتا، لاري بيج وسيرغاي برين من غوغل بطبيعة الحال، وأيضا بيتر ثيل أحد مؤسسي باي بال، الرائد العالمي للأداء بالبطاقة عن طريق الشبكة. فقد توافد على الجامعة التي يوجد مقرها في مركز غوغل 2500 تلميذا منذ نشأتها سنة 2008، بنكيون ومعماريون ورؤساء مؤسسات أو أطر مسيرة للشركات الكبرى. وسيكون الكثير من "الطلبة" الذين يعودون بعد أسبوع من التحصيل سفراء ينشرون في العالم أجمع خطاب الجامعة الفريدة: ستقضي "الحلولية"[1] على كل مشاكلنا شريطة ألا نضع أمامها إكراهات." إن السلطات العمومية ليست مسلحة بما يكفي لكي تفهم التكنولوجيا التطورية. "لذلك تجنح إلى إعاقة التقدم وهو أمر لا فائدة منه"، كما يقول سليم إسماعيل، نائب الرئيس السابق لياهو، والمكلف اليوم بالتطور العالمي للجامعة الفريدة.

---

(1) الحلولية solutionnisme تيار فكري يقول بضرورة النظر إلى قضية ما من زاوية كونها قابلة للحل من الناحية التقنية، دون الاهتمام بالأسباب الواقعية التي كانت وراءها، ولا يأخذ في الحسبان الممارسات السابقة (المترجم).

تقوم إيديولوجيا اللبرالية المتوحشة للبيغ داتا على فردية مطلقة. إن التطور التكنولوجي بأي ثمن عندها هو القاعدة التي يقوم عليها الفرد من أجل نفسه. "وستعطينا البيوتكنولوجيا، في الجيلين المقبلين، وسائل ستمكننا من إنجاز ما لم ينجح المتخصصون في الهندسة الاجتماعية القيام به، وهو القلق الذي عبر عنه الفيلسوف والاقتصادي الأمريكي فرانسيس فوكوياما[1]. وفي هذه المرحلة سنكـون قـد انتهينـا مع التاريخ الإنساني، لأننا نكون قد قضينا على الكائنات البشرية. حينها سيبدأ تاريخ جديد لما هو أبعد من الإنساني".

(1) La fin de l'homme: Les conséquences de la révolution biotechnique, La table ronde, 2002

البطالة الشاملة

"غاية المستقبل هي البطالة الشاملة. وعندها سيحلو لنا اللهو"[1].

"اعطني الكرة البنفسجية". ربيع 2008 مختبر تحليل وهندسة الأنظمة في المركز الوطني للبحث العلمي في تولوز. ينظر الروبو HRP-2 من علوه البالغ مترا و57 سنتمترا إلى الطاولة التي وضعت فوقها كرتان، حمراء وخضراء، ويجيب: "لا أراها". ويلح عليه المجرب: "واصل البحث" HRP2، يدير الروبو رأسه يمينا وشمالا، ويحدق في الغرفة ويرى في الأخير الكرة البنفسجية موضوعة على الرف. يتقدم الروبو ببطء نحو الرف يرفع يديه، ولكن الكرة موجودة في الأعلى فلا يستطيع الإمساك بها. حينها يتكئ HRP2 على أصابع قدميه. ويفرح الباحثون. لقد نجح هذا الكائن في التجربة. فلكي يخرج من المأزق كان عليه من تلقاء ذاته اعتماد اللوغاريتم الذي زُرع فيه. ولكن فجأة اختل توازنه فكاد يسقط. حينها رمى بذراعه اليمنى إلى الوراء وألقى برجله المقابلة إلى الأمام. لقد فهم الروبو أنه من أجل استعادة هدوئه كان عليه أن يخلق توازنا، فقد حل معادلة التوازن لوحده. وقد تساءل بعدها جان بول لومان، رئيس المشروع، "لا أحد علمه رد الفعل هذا. لم

(1) Arthur Clarke أرثير كلارك كاتب علم خيالي ومستقبلي توفي سنة 2008

يكن ذلك مبرمجا". يومها حقق البحث في الذكاء الاصطناعي قفزة جبارة إلى الأمام. لقد كشف HRP2 عن وجود ذكاء جسدي، فهو الذي مكن الكائن الإنساني من التحكم في حركات جسمه بطريقة أوتوماتيكية، لكي لا يُثقل على الدماغ بالمعلومات ويتفرغ للمهام المعقدة كاللغة أو البرهنة العقلية.

كان يجب انتظار مرور 69 سنة منذ أن اكتشف أول حاسوب بالمصباح لكي تعلن الثورة الإعلامية عن ميلاد روبو "ذكي"، شبيه بالإنسان، كما تصوره العلم الخيالي. إنه الشكل الأكثر تجليا لذكاء اصطناعي هو في طريقه إلى أن يتجسد في حواسيب وسيخلخل حياتنا أكثر مما فعل ذلك الأنترنيت. إن هذا الذكاء الحاصل عن عمليات رياضية يتم زرعه من خلال "لوغاريتمات تطورية". ولقد سميت بهذا الاسم لأنها مستوحاة من آليات التطور البيولوجي. لقد زرعت في HRP2، في حواسيب التحليل المالي والقانوني والتشخيص الطبي. ويروي عالم الأعصاب إدريس أبركان الباحث في المدرسة المركزية في باريس، أن "الإنسان يعرف اليوم كيف يصنع حاسوبا يقدم حلا دون أن يشرح له كيف وصل إلى ذلك". إن هذه اللوغاريتمات قادرة على أن تكون أصيلة بالمطلق: إنها قادرة على حل المشاكل والكشف عن طرق جديدة. فإذا سمح لها القانون، فإنها يمكن أن تضع براءات اختراع (...) ويمكن نظريا أن تفلت من مراقبتنا، لأن برنامجا تطوريا يمكن أن ينمو بطريقة أسرع من الفهم الإنساني لتطورها"[1].

(1) « faut il avoir peur de l'intelligence artificielle », Le point, Tribune, 19 décembre 2014

من المعروف أن "الرَّوْبتة"[1] دخلت في تنافس مع الإنسان بالنسبة للمهام التكرارية: "وستتحدد في المستقبل تنافسية دولة ما حسب درجة الرَّوْبتة عندها. فالبلدان القادرة على جلب استثمارات صناعية هي تلك التي ستحظى بالمبرمجين وببنية تحتية روبوتية"، هذا ما أعلنت عنه المجموعة الاستشارية بوستين[2]. وقد بدأ العملاق التايواني فوكسكوم، الذي يشتغل لحساب شركات الهاي تايك، في إقامة أذرع اصطناعية في معامله تتمتع بأيدي لها أصابع متعددة وقادرة على التحكم في مكونات صغيرة جدا، ثلاث مرات أكثر من سمك الشَّعْرة. وغايته المعلنة هي تعويض الثلاثة آلاف عامل صيني الذين يشتغلون في تصنيع الأيفون 6. تستثمر البيغ داتا بكثرة في سوق الروبوهات، فهو ثروة لا تُقدر بثمن، وتقدر اللجنة الأوروبية أن خدمة الروبوتيك وحدها ستصل إلى 100 مليار أورو في أفق 2020. وقد اشترت أمازون المتخصصة في الروبوتيك اللوجستيكية الأمريكي بـ800 مليون دولار، وذلك من أجل مضاعفة "العلبة" الذكية في مراكز الإرسال عندها عشر مرات. ومن أجل المزيد من تحسين الآلية أعلن جيف بيزوس رئيس الشركة، سنة 2015 عن مباراة من أجل خلق آلة قادرة على التعرف على علبة بيسكوي موضوعة على الرف، أو لعبة ما، ثم تضعها في العلبة المناسبة. ويحلم جيف بيزوس أيضا بتسليم البضائع عن طريق الطائرات الصغيرة (الدرون)، وقد بدأ يجربها في الولايات المتحدة.

---

(1) الروبتة robotisation وهي أساسا الاعتماد على الروبوهات (الإنسان الآلي) في إنجاز الكثير من المهام (المترجم).

(2) Boston consulting group

وقد ضاعف غوغل أيضا من مشترياته. فقد اشترى الشركة الأمريكية ميطا روبوتيك، المتخصصة في الروبوهات الموجهة للعيش والاشتغال بجانب الإنسان، كما اشترى الياباني شافت إينك، وهو الذي خلق كائنا بقدمين يساعد على عمليات رفع الأنقاض في المحطة النووية فوكوشيما؛ وخلق أيضا شركة متطورة تصنع أذرعا متمفصلة أو أنظمة للرؤية ثلاثية الأبعاد. والمثير للدهشة حقا هو أنه في سنة 2013 التهمت الشركة مونتين فيو مُصنِّعا للروبوهات العسكرية، بوستون ديناميك، الذي يعمل بتوافق مع البينتاغون. وهكذا أضيفت إلى ثروة وحش عسكري: بيغ دوغ، روبو بغل يخفف على الجنود المشاة، شيتاح، وهو روبو يتمتع بأربعة أرجل، ويعد أسرع روبو في العالم، فهو يقطع 50 كيلوميترا في الساعة. وهناك روبو آخر يسمى وايلد كات، موجه للتعرف ويمكنه برشاقة قِط، أن يقفز أو ينقلب على ظهره أو يدور ضمن زاوية مستقيمة؟

أما الآن فقد دخل الحاسوب، مع الذكاء الاصطناعي، في مواجهة مباشرة مع الإنسان في سوق العمل، وسيحل محله في أشغال معقدة حيث كان استعمال الدماغ البشري فيها أمرا ضروريا. وفي أفق العشرين سنة المقبلة سيكون بالإمكان إسناد 47 في المائة من الوظائف في الولايات المتحدة إلى آلات ذكية، أي حوالي 702 مهنة، أو هذا ما تقوله على الأقل دراسة أنجزها سنة 2013 باحثان من جامعة أوكسفورد، ستستولي الروبوهات، مع تقدم الذكاء الاصطناعي، على الوظائف المؤهلة. وهناك الآن روبوهات صحفيون، هم في الحقيقة برامج إعلامية تستوعب لوغاريتمات في وقت حقيقي، إنها معلومات مستقاة من الأنترنيت، وتجمع بينها في

حامل ورقي لتتحدث عن حالة الأسواق المالية أو الرياضية. فلن تكتفي الآلات بمساعدة الإنسان، إنها ستحل محله. وشيئا فشيئا سيتلقى أصحاب الياقات البيضاء المصير نفسه، كما كان مصير الياقات الزرقاء قبلهم. فإذا زودت المؤسسات أطرها بحواسيب محمولة تمكنهم من العمل حيثما كانوا وفي أي وقت، فإنها ستكون قد منحت الصيغة: "المزيد من المهام بأقل عدد من العمال"، شكلها الأمثل. إن المكتب المتجول، وهو المرحلة النهائية في "الفضاء المفتوح"، حيث لن يكون لأي موظف مكانا قارا تندرج ضمن هذا المنطق، حينها لن يشعر أحد باختفاء عامل ما.

وبالنسبة للكثير من الاقتصاديين، فإن المبدأ الشمبيتيري[1] الشهير: "التدمير الخلاق" الذي يقوم التطور التقني وفقه بتدمير الوظائف القديمة لكي يخلق وظائف جديدة وأكثر قيمة، لا يمكن تطبيقه هنا. هناك منطق آخر يأخذ مكانه، هو "التفكيك الخلاق" الذي يوضح بشكل كبير مصير كوداك وإنستغرام. ففي 2012 أعلن عملاق الصورة الآنية عن إفلاسه، لأنه لم يدرك قوة الرقمية، هو الذي كان 16 سنة قبل ذلك يُشغل 140000 شخصا، وتقدر قيمته في البورصة بـ 28 مليار دولار. وفي السنة نفسها، سيشتري فايسبوك إنستغرام، وهي شركة متطورة بـ13 عاملا سوقت تطبيقا خاصا بالمحمول لتقاسم الصور، بـ715 مليون دولار. وعندما ظهر سنة 2014 منافس جديد، خدمة الإرساليات الآنية واتساب، وضع

---

(1) نسبة إلى الاقتصادي النمساوي جوزيف شامبيتر Joseph Schumpeter (1883-1950) (المترجم).

مارك زاكربيرغ على الطاولة 19 مليار دولار للالتهامه. لقد خلقت الشركات الرقمية شكلا جديدا من الاحتكار الجذري. فقد عرفت بعض قطاعات الأنشطة من مثل الصناعة الموسيقية والفيديو، وربما قريبا النشر، تفككيا مع مجيء الرقمية. ففي ظرف 10 سنوات فقدت الصناعة الموسيقية نصف العاملين فيها. وها نحن نعاين نموا للغافا والناتو، كما يطلق عليها عند نيتفليكس أربنب arnb وتيسلا tesla وأوبير uber، إنها لا تسهم فقط في تدمير فرص الشغل، إنها، بالإضافة إلى ذلك، تشكك في العمل ذاته. فتلك المنصات المسؤولة عن العلاقات تُقصي الوسائط بين الزبون والبائع وتحول عمالهم إلى "متعاونين" غير رسميين. وهي التي تحدد قواعد اللعبة بعيدا عن النقابات. وهكذا، فإن أوبير UBER[1]، وهو كابوس التاكسيات، لا يشغل سوى ألف شخص ويُقدر رقم معاملاته بـ10 ملايير دولار. أما آر ب ن ب Airbnb[2]، وهي المنافس المباشر للمجموعات الفندقية، فإنها لا تُشغل في فرنسا، أحد أسواقها الرئيسة، سوى 25 عاملا، وبرقم معاملات سنوي يصل إلى 800 مليون دولار. ففي أكتوبر الأخير كانت أمازون قد أعلنت أنها تريد توظيف موزعين عرضيين يشتغلون بالهاتف ويتلقون أجرا بالساعة، حوالي 20 دولارا. ومنذ فترة قصيرة تكاثرت شركات توزيع الوجبات الغذائية في المنازل في المدن الرئيسة الفرنسية مع بعض العمال في مكتب

(1) UBER شركة تكنولوجية أمريكية مختصة في النقل الحضري. إنها حلت محل التكسيات التقليدية. فهي تربط بين المستعملين وسائقين مستقلين (المترجم).
(2) Airbnb مؤسسة تسوق للفنادق والرحلات الجوية عبر الأنترنيت (المترجم).

يديرون، عبر لوغاريتمات، تنقل حشد من المقاولين الذاتيين بدون ضمان اجتماعي ولا ورقة تدل على صفتهم. توهم هذه الأبرنة[1]، التي تسمح بتكسير الأثمان، المستهلك أنه يستعيد شيئا من قوته الشرائية، ولكنها تزيد من هشاشة المجتمع.

وبينما يعدنا الأنترنيت والحواسيب الذكية باقتصاد للتشارك والتضامن، فإن الطوباوية الرقمية اندرجت ضمن رؤية تجارية خالصة لصالح الشركات العالمية الكبرى التي تزداد غنى وتزداد قوة. ففي أفق 2025، ستنخفض، حسب مكتب بوستون للاستشارة، القيمة العامة لليد العاملة بـ 16 في المائة بفضل أتْمَتَة المجتمع[2]. وكما يقول الاقتصادي دانييل كوهين، فإن الرقمية هي "ثورة اقتصادية بدون نمو"[3]. وفي تصوره، فإن نصف الوظائف مهدد بالاختفاء في المدى البعيد، وخاصة وظائف الطبقة المتوسطة. سيارة ذاتية، طابعات ثلاثية الأبعاد، مترجم ذكي، طائرة صغيرة للتوزيع، ساعي بريد، الناقلون، روبو قانوني أو لوغاريتم للتشخيص الطبي، كل هؤلاء سيقضون على الوظيفة، دون يقين من أن التجديد سيعوض الخسارة، كما حدث ذلك إلى حد الآن. بل العكس هو الذي حصل، فالوظائف التي جاءت بها تكنولوجيات الرقمية لم تقدم لحد الآن، المنتظر منها.

---

(1) الأبرنة نسبة إلى الكلمة السابقة، أي تعميم خدمات التاكسي بالصيغة الجديدة (المترجم).

(2) أتمتة Automatisation العمل الآلي الذي لا يحتاج إلى عمال (المترجم)

(3) Le monde est clos, le désir est infini, Albin Michel, 2915

وهناك ما هو أفظع من ذلك، فبعد أن علَّم غوغل الآلات كيف تفهم اللغة الإنسانية والتعرف على الانفعالات في الصور، ها هو الآن يريد زرع اكتشافاته في نماذج أولية لروبوهات عسكرية من أجل خلق روبوهات "اجتماعية". وضمن هذا الأفق قدمت الشركة في أغسطس 2015، أثناء عرض عام، الصيغة المحسنة و"المتحضرة" لكائن حربي صممته بوسطون ديناميكس. سنتين قبل ذلك كتب إيريك شميدت قائلا: "تنصب الأعمال الجادة حاليا على تصميم روبوهات اجتماعية قادرة على التعرف على حركات الإنسان وتجيب عنها"[1]. ففي مجتمعنا الذي تهدده الشيخوخة هناك سوق رائعة تُدشن لـ"كوب" أو الروبوهات المتعاونة"، كما تسمى، إنها نونو طبية موجهة للمسنين. وتأمل البيغ داتا بالإضافة إلى دور العجزة والمؤسسات الصحية، استغلال الهومويود[2] الاجتماعية إلى أقصى الحدود عند دائمي الاتصال الذين يشكون من نقص عاطفي. وهناك الشعار: "150 صديقا على فايسبوك وروبو". وتكون مهمة الروبو هي القيام بدور شخصية مصالحة قُدت على المقاس استنادا إلى كم هائل من المعطيات التي تم تجميعها عن طبائع مختلفة وعادات وأذواق وانتظارات مالكه. سيعمق الكوبوت[3] الذي سيكون قريبا ضروريا من الوحدة ومن عزلة الإنسان الرقمي homo numericus وذلك من خلال توفير بديل لعلاقة إنسانية،

---

(1) A nous d'écrire l'histoire, op cit

(2) هومويد humoide هي روبوهات تحاكي الإنسان في الشكل والوظائف (المترجم).

(3) cobot ما يشكل تداخلا بين الإنسان والروبو (المترجم)

مصفى من كل التعقيدات ومحروم من أي مواجهة ثقافية. فبقدر ما ينخفض ثمنها، ويقدر الآن بـ30000 ألف أورو، ستجتاح هذه الربوهات معيشنا اليومي. ومن سخرية القدر، أنه يمكن إسناد قرار توقيف عامل عن العمل، كما هي مقابلة التوظيف، إلى روبو، فهناك دراسة حديثة أنجزتها جامعة مينوسيتا وتورونتو خلُصت إلى أن اللوغاريتم أكثر ثقة من حدس المشغل." وفي النهاية، على الإنسان أن يترك الآلة تقرر مكانه. بهذا يشرح الباحثون هذا الأمر، فهم يراهنون على أنه في عالم تسكنه آلات روبوهات شبيهة بالإنسان، فإن الامتياز الحقيقي هو أن يكون في خدمتك إنسان وليس روبو منزليا.

ففي عالم مرقمن وتتحكم فيه الآلة حيث العمل في تناقص، سيدفع مجيء الروبو هومو بيد بـ"البطالة التكنولوجية" إلى المرحلة القصوى للبطالة الشاملة. فلن تفضل سوى الأعمال ذات القيمة العالية التي تتطلب إبداعا أو لقاء إنسانيا. وهي 20 في المائة من اليد العاملة التي تشتغل 120 ساعة في الأسبوع، كما يتكهن بذلك الاقتصادي نورييل روبيني. وهي نسبة كافية للحفاظ على النشاط الاقتصادي العالمي. يتعلق الأمر بتحول استبقته البيغ داتا وهي تتصور "مدخولا كونيا" لـ 80 في المائة المتبقية، الذين لا عمل لهم. يدافع عن هذه الفكرة، التي تبدو في ظاهرها سخية وإنسانية، دعاة اللبرالية المتوحشة، هذا التيار المفرط في لبيراليته الذي تدعمه البيغ داتا بسخاء. فمن خلال تخصيص مدخول دائم لغير النشطاء، وقد أصبحوا أغلبية، تقوم بخنق الإحساس بالظلم عندهم، والرغبة في التمرد، ستتخلص من عالم الأجراء بإكراهاته القانونية.

إن غاية عمالقة الرقمية هي قوانين قليلة وحضور قليل للدولة في أفق استيلاء قلة قليلة على الثروات، أداتهم في ذلك هو الإيديولوجيا اللبرالية المتوحشة. ومن خلال ذلك ستصبح الدولة الراعية، ذلك الشيء المقرف، موضة قديمة، فهي رغم التخفيضات الضريبية تبدو وكأنها تكلفهم غاليا. لقد مكنت اللوغاريتمات والآلات الذكية من جني أرباح في الإنتاجية. والسبب في ذلك هو أن الروبو، عندما ينتج نظير ثمنه وصيانته، أي أنه يستعيد قوة العمل التي مكنت من تصنيعه، فإنه يقدم ربحا خاصا، ولن يكون في حاجة إلى النوم ولا العطلة. ففي الصين حيث يتزايد عدد العمال، فإن الروبو سيصبح مربحا بعد سنة فقط. لقد بلور أسياد البيغ داتا، من أجل الحفاظ على الحد الأقصى من الثروات التي تم اكتسابها من الإنتاجية، حيلة تتمثل في "مدخول الحرية"، كما سموه. فمن أجل ضمان هذا "الراتب"، كانت الفكرة هي أن يؤدوا لـ 5.2 مليار ونصف من المبحرين جزءا من الآثار الرقمية التي يتنازل عنها هؤلاء اليوم مجانيا. والناس مستعدون لذلك. فحسب استطلاع للرأي قامت به هافاس ميديا في 30 سبتمبر 2014 ، فإن 30 في المائة من الفرنسيين مستعدون لبيع معطياتهم الشخصية. ويقبل 42 في المائة من الشباب الكشف عن المزيد من المعلومات عن حياتهم نظير مقابل مادي. وفي أكتوبر 2014 قام فنان بتجربة مقنعة في بروكلين من أجل التحسيس بالحفاظ على المعطيات الخاصة: لقد قبل 380 نيويوركيا أن يقدموا له الاسم والعنوان والبصمات ورقم بطاقة الضمان الاجتماعي مقابل مشروب كوكي بالقرفة. وسيضخ جزء من الأرباح الإنتاجية التي تحققت بفضل الأَتْمَمة في شكل تخفيض للأسعار،

لكي يُرفع من القدرة الشرائية للمستفيدين من المدخول الكوني. وهناك في الأخير الطابعة الثلاثية الأبعاد التي تمكن من صناعة منتجات في المنزل بعد اقتناء المادة الأولية والملف الإعلامي للبارامترات الخاصة بذلك. لقد أصبح المستهلك "منتي-استهلاكي"[1]، الصيغة التي تجمع في الإنجليزية بين "منتج" و"مستهلك". لن تكون قيمة الأشياء مستمدة من ثمنها أو من موضوعها، بل من المعلومة، تلك المخزنة في صناديق رقمية ضخمة عند البيغ داتا.

نخبة قليلة عالمية ستقرر في المدى المنظور في الأشياء التي تكون بمقابل أو بالمجان، فالمجانية بطبيعة الحال هي رديف "البطالة الشاملة"، وهو ما يمكن من رسم تنظيم اجتماعي جديد يتكون من جيش من العاطلين يُشبعون رغباتهم الأساسية ويتمتعون بتسلية مجانية تقدمها البيغ داتا. وسيكون المقابل هو القبول الضمني بوجود مناطق توضع فيها الثروات في أماكن محمية. وستكون هذه البطالة الواسعة مقبولة، ولا يمكن تفاديها، فالذكاء الاصطناعي حل محل الإنسان في كل مكان. إن العالم حسب البيغ داتا سيتكفل بتشغيلنا وتأمين حياتنا وتهيئنا لحضارة يكون الإنتاج والعمل من نصيب الروبوهات.

ويحذر أنطوني أغوير Anthony Aguirre أستاذ الفيزياء والكوسمولوجيا في جامعة كاليفورنا أن "النخب الاجتماعية التي تراقب هذه الحواسيب الفائقة الذكاء يمكن أن تتمتع بسلطة مطلقة

---

(1) prosumer وهي كلمة التي تجمع بين productaur و consommateur (المترجم).

على مجموع الكائنات البشرية"[1]. ويحذرنا من خطر آخر: "يمكن للآلات، على المدى البعيد، أن تنتزع من الإنسان سلطته وتوجهه وتستعبده، أو قد تقضي عليه. هناك ضغط على الباحثين للدفع بهم دائما إلى الأمام وبسرعة، دون أن يضعوا أسئلة حول ذلك". وقد سبق أن تم خرق البند الأول من ميثاق أزيموف مع السيبورغات العسكرية: "لا يجب أن يمس الروبو بالإنسان". هناك لائحة من القوانين نشرت منذ ثلاثة وسبعين سنة تمنع أن يأتي يوم تتحول فيه الروبوهات إلى كارثة. والحل الذي اقترحه أنطوني أغوير، الذي كان وراء تأسيس معهد مستقبل الحياة في بداية 2014، من أجل الاهتمام بوقع الذكاء الاصطناعي على حياتنا وتحجيم الأدمغة الرقمية، هو التحكم في الأدمغة الرقمية. فأحد نجوم وادي السيليكون، إيلون موسك، تنبه هو أيضا إلى هذا التهديد. فقد دعم رئيس سبيس إكس، أحد الكبار العالميين في ميدان الفضاء، بـ 10 ملايين دولار، من أجل إنشاء معهد مستقبل الحياة. ولكي يكون على اطلاع دائم على الأبحاث الجديدة في القطاع، استثمر في شركة متخصصة في الذكاء الاصطناعي. وهو ما دفعه إلى التصريح جهارا: "أتمنى ألا يكون الإنسان قد استخدم برامج بيولوجية لإطلاق الذكاء الفائق للرقمية. ومع الأسف يبدو هذا محتملا"[2]. إنه تشاؤم تقاسمه مع الفزيائي ستيفان هاوكينغ الذي يُعد عنده هوس البيغ داتا في خلق "آلة تفكر" دق ناقوس نهاية الإنسانية". ففي تصوره، سيكون هذا

---

(1) «Quelle intelligence pour l'humanité?», Le monde, 13 avril 2015

(2) Twitter,3aout 2014

الكيان قادرا على التحرر والتحسن، حينها "لن يكون بمقدور الإنسان المحدود بتطوره البيولوجي البطيء منافسته، وسينسحب من الحياة" كما يحذر من ذلك.

فعندما فتحت البيغ داتا علبة البندورا[1] للذكاء الاصطناعي، فإنها تكون قد وضعت الإنسان ضمن وضع تنافسي، في السراء والضراء. "كل شيء على ما يرام في الكوكب سورور Soror[2]، لقد كانت عندنا آلات تقوم بالمهام البسيطة، وللمهام الأخرى دربنا قردة"، هـذا ما يقـوله بيير بول على لسان شخصيات روايته "كوكب القردة". في تلك الفترة كنا قد توقفنا عن النشاط الجسدي والفكري، حتى الكتب الصبيانية لم تعد تهمنا. في تلك الأثناء كانوا يراقبوننا".

---

(1) علبة البندورا boite de pandore الشهيرة في الأسطورة اليونانية وتشير إلى العلبة التي كانت بين يدي باندورا، المرأة التي خلقها زيوس، وكانت تحتوي على كل شرور الكون (المترجم).

(2) Soror سرور هو الكوكب الذي كانت تسكنه القردة في الرواية الشهيرة "كوكب القردة"، وهي رواية تنتمي إلى العلم الخيالي (المترجم).

استهلك وأتلصص وألعب

"ستكون تكنولوجيا الاستهداف الفردي متقنة لدرجة أنه سيكون صعبا على الناس أن ينظروا إلى شيء أو يستهلكونه لم يكن قد صُمم خصيصا لهم".[1]

سنتين بعد ذلك، أثناء نشر مقال علمي سيكتشف 700000 ألف من المبحرين أن فايسبوك استعملهم ضد إرادتهم كحقل تجارب. فعلى امتداد أسبوع في يناير 2012 قامت الشبكة الاجتماعية في سرية تامة بتجربة أطلق عليها: "دليل تجريبي لعدوى عاطفية من خلال الشبكات الاجتماعية". ومن أجل ذلك زور فايسبوك خطه الراهن. كانت هناك ثلاث مجموعات تتكون كل واحدة منها من 200000 مستعمل وكانوا عرضة، كل مجموعة على حده، لمعلومات محايدة في المجمل، أو سلبية أو إيجابية. ومن خلال تحليل الإرساليات التي بعثها هؤلاء المبحرون الد ـ استُدرجوا رغم أنوفهم إلى هذه التجربة، كشفت اللوغاريمات أن وقع المعلومات كان يغير من حالتهم الانفعالية، بل ويؤثر في سلوكهم. لقد كان رد فعل الذين كانوا عرضة لمعلومات إيجابية يتجسد في إعادة إنتاج إرساليات

(1) إيريك شميدت رئيس غوغل ماي 2007.

تتضمن كلمات إيجابية. وكان ذلك دليلا على أن البيغ داتا قادرة، عبر الشبكات الاجتماعية، على استثارة حالات انفعالية دائمة ضمن السكان. فالتجربة الممارسة كانت قياسا طبيعيا، لأن دخول المستعمل إلى فايسبوك، كما يعرف الجميع، مشروط بقبوله العقد الذي بموجبه يتخلى للشركة عن معطياته الشخصية لكي، "تحلل البيانات والتجارب للبحث وتحسين الخدمة".

لقد كانت غاية البيغ داتا هي فهم انفعالاتنا لكي تراقبنا وتوقظ المستهلك الذي يرقد داخلنا. وقد كان فايسبوك من الأوائل الذين استثمروا في ما يسمى لوغاريتمات "التعلم العميق"، وهي برامج قادرة على التعرف على الأحاسيس في نص ما استنادا إلى نظام الكلمات ودورها الدلالي والسياق الذي تظهر فيه. يستطيع هذا الجيل الجديد من اللوغاريتمات استخراج رسائل إلكترونية وصورا وفيديوهات أو شخصية المبحر من كتلة من المعطيات الرقمية. إن الغاية النهائية هي الكشف عن الانتظارات أو استباقها. وقد وظف فايسبوك، لكي يُعَلِّم الحاسوب كيف يُمسك بكل دقائق الانفعال الإنساني، أحد أفضل المتخصصين العالميين في هذا المجال، وهو الفرنسي يان لوكين. فهذا الفرنسي، وهو رائد التعليم العميق كان يُلقن، مع فريق يتكون من أربعين باحثا ومقره باريس، الآلات وأشياء أخرى، كيف تضبط خريطة الروابط العاطفية بين الأفراد انطلاقا من معطيات رقمية.

إن استباق رغباتنا هو الجاذبية التي لا تقاوم التي تمارسها علينا البيغ داتا. فأحسن من بيغ بروثر هناك بيغ موثر. إنها أم لا تروم

سوى سعادتنا وهي مصدر دكتاتورية ناعمة حيث تتحقق الرقابة الشاملة للأفراد ليس ضد إرادتهم، بل برضاهم الضمني. وكما يؤكد ذلك السيكولوجي سيرج حافيظ: "تعرفكم الأم الكبرى أفضل مما تعرفون أنفسكم. إنها أم وحشية، أم كبرى بالغة القوة هي التي أرهبت وسحرت في الوقت ذاته روحنا الرضيعة، فهي تُشبع كل حاجاتنا وتستبق رغباتنا، وتخمن تفكيرنا الأكثر سرية، وتوجهها بليونة وإقناع في أبسط مظاهرها وذلك كله من أجل خيرها"[1]. يتم إطلاق الدافع على الشراء من خلال تأجيج حاجة معلقة في لاوعي المبحر، فهي تعرف نواياها العميقة. إن الحاجة ليست سابقة، إنها تُستثار من خلال التقنية التي تبتكر موضوعا جيدا. لا يهم أن يكون نافعا أو تافها أو خطيرا، ففي جميع الحالات لا حول للإنسان أمامه، إن الموظف الذي يستقبلكم عند أمازون، في أكبر مكتبة في العالم، يسمى "الترتيب التعاوني حسب المقالات"[2]. إنه لوغاريتم قوي وقادر على أن يقول لك عن كتاب لم تفكر فيه بعد: "ستحب هذا الكتاب أيضا"، ومن أجل ولوج رأسك، فإن هذا الموظف يكون قد اطلع بدقة على طلباتك القديمة، وتاريخك في الإبحار، والوقت الذي قضيته في التعليقات حول هذا الكتاب أو ذاك، ويعرف جنسيتك، وبلدك الأصلي، بل والطقس السائد في المكان الذي تتصل منه. كل هذا يقارن مع عادات المستهلكين الذين يشبهونك. وهكذا، فإن اللوغاريتم يُقَدِّر ما إذا كان مضمون الكتاب الذي

---

(1) In mesure et démesuré… peut-on vivre sans limite? sous la direction de renne Frydman et Muriel Flis-Treves, P U F, Janvier 2015

(2) colloborative filtering item to item

يرغب في حثك على شرائه شبيه بمضمون الكتب التي أحبها مستهلكون يشبهونك. وهذا يعني أن من بين ثلاثة ملايين من العناوين المتوفرة في المخزن، فإنه لن يوجهك إلا إلى تلك التي نبشها البرنامج المعلوماتي مما يكون من المفترض أنك ترغب فيه الآن.

إنها برمجيات تقول لنا ما يجب أن نقرأه، والموسيقى التي يجب أن نسمعها والفيلم الذي علينا مشاهدته، وما علينا أكله وفي أي مكان. فمع الكتاب الإلكتروني[1] يدخلون شيئا فشيئا إلى حميميتك الخاصة بالقراءة. فالبرامج الجاسوسة التي تتضمنها لا تُمكنك من معرفة العناوين التي قرأتها فقط، بل أيضا الفقرات التي لم تعجبك، لأنك قفزت عليها أو قرأتها قراءة سريعة. سيتكرر هذا التسلل إلى رأسك مع كل الأفلام والمقاطع الموسيقية التي حملتها بستريميغ streaming[2]. وهذا يعني أن آبل، وهو أول مروج للأقراص في الولايات المتحدة بـ 11 مليون من العناوين المحملة، يعرف الشيء الكثير عن الذوق الموسيقي لزبنائه، إلى حد التعرف على مزاجهم استنادا إلى المقاطع التي يسمعونها. ما يشبه الباروميتر الانفعالي للساكنة لا قيمة للأساليب الإشهارية القديمة أمامها. أما فايسبوك فعليه أن يقول شكرا لأعضائه الذين ينقرون ثلاثة ملايين يوميا على "لايك" الأصبع الصغيرة المرفوعة، الدالة على حب مضمون ما يُقترح عليهم. لقد تم التخلي عن التكرار الإشهاري

---

(1) E.book

(2) streaming musical تقنية في نشر وقراءة المعطيات مباشرة في النيت وبذلك فإنها تمنع من تحميل الموسيقى والأفلام (المترجم).

الذي قد يحدث نوعا من التخمة. لا أحد يرى الصنارة التي تمكن من جذب المستهلك. إننا نبتلع الطعم دون أن ندري. فبمجرد ما يعبر المرء عن رغبة ما حتى يُستجاب لها.

وتستثير فينا البيغ داتا نفاد الصبر أيضا. ففي هذا الانقباض المجنون للزمن، أصبح الانتظار أمرا لا يطاق. لقد عدنا مراهقين غير قادرين على تأجيل رغباتنا، فالبيغ داتا تسارع إلى تلبيتها لكي توهمنا بعظمتنا. يتعلق الأمر بـ"هذيان الرغبة" الشهير الذي تحدث عنه فرويد. يمكن أن نحصل على كل شيء بنقرة، تلك العصا السحرية التي قضت على مفهوم الجهد ذاته. نحن مخدرون بـ"أسرع دائما"، لقد فقدنا أنفسنا. وقد لاحظ السوسيولوجي وأستاذ القانون زيغمانت بومان أننا "أبعد ما نكون عن الفلسفة القديمة، فلسفة الرواقيين والشكاكين الذين كان مثال السعادة عندهم هو التحسن الذاتي الدائم والمتواصل. والآن نفضل المختصرات التي تُلغي الجهد، وتلغي العمل على المدى البعيد والعمل الشاق دون أن تكون هناك ضمانة على النجاح فيه"[1].

لقد قضت الأم الكبرى وهي تقوم باختيارات مكاننا على قلق الشك عندنا، الشك الذي يبنينا ومن خلاله نكبر. حرية أقل من أجل مزيد من الرفاه: إنه استبداد لين. تُسهم اللوغاريتمات، عندما تضفي طابعا شخصيا على عالمنا الرقمي إلى أن تجعل منه مصباح علاء الدين، في تنمية الكسل الفكري، وتقلص من الفضول عندنا. ففي هذا العالم النرجسي بشكل رهيب حيث يقوم الحاسوب بكل

---

(1) cité par Monique Atlan et Roger-pol Droit, Human, op cit

شيء، يُصبح غير المنتظر الذي قد يدمر قناعاتنا ويدفعنا إلى التصرف غير ممكن الوقوع. ألا يحلم مارك زاكربيغ، مؤسس فايسبوك بخلق "الجريدة المثلى" المشخصة والمأتممة، وسيكون رئيس تحريرها لوغاريتما يقترح على كل مبحر معلومات بلا مفاجأة، مصممة على المقاس استنادا إلى مركز اهتمامه كما استخرُجت من الشبكة؟ يتعلق الأمر بمعلومة مشخصنة ستسهم في انهيار الفرد ذاته. فلا غيرية عنده، ولا مواجهة مع الآخر، من المستحيل أن يكبر المرء ويتطور. سنظل مراهقين محنطين في شرنقة تحمينا. وبهذا تستجيب الأم الكبرى لحاجات الأمن المترسخة في أعمق أعماق الإنسان. فالإنسان عندما يولد يكون في حالة "بدئية"، أي كائنا لم يكتمل بعد، ويكون في حاجة إلى الحماية لكي يستمر في الحياة، على عكس فصائل أخرى من الحيوانات"، كما تُذكر بذلك الفيلسوفة والنفسانية آن دوفورمانتيل. فإذا لم يكن الرضيع محاطا في البداية بالعناية والكلام فسيكون مهددا بالموت"[1]. يتعلق الأمر بهشاشة أصلية تستغلها البيغ داتا بإتقان.

فمن خلال استيلائها الكلي على ذهننا المتصل تمكنت الأم الكبرى من نسيان أكثر القضايا المثيرة للقلق، قضية موتنا. إنها طريقة الغاية منها منع هذا التساؤل المخرب في المقام الأول: ما هو المعنى الذي يجب أن نعطيه لحياتنا؟ فمن أجل التخلص من هذا الموت، المستبعد جسديا في المعيش اليومي في الغرب، تقدمه لنا الشبكة لكي نتأمله كما لم نفعل من قبل أبدا. إن العنف معروض في

---

(1) Anne Dufourmantelle «La sécurité engendre plus la peur que l'inverse», Liberation 15 septembre 2015

كل الشاشات على الطريقة الافتراضية. ستُضاعف الصورة الصدمة نفسها إلى ما لا نهاية. وفي الواقع، فإن دماغنا مرعوب من الصدمات الانفعالية. في البداية، كان ذلك من أجل المردودية. فالجزء الكبير من طاقاتنا تستهلكه الأعصاب. والحال أن اتخاذ قرار ما بطريقة عقلانية يكلف الشيء الكثير من حيث السعرات الحرارية، أكثر من ذاك الذي يتطلبه قرار اتُـخِذ حدسيا. فكيف نفسر إذن اكتساح البورنو للنيت. 25 في المائة من أسئلة البحث التي يقوم بها المبحرون يوميا في محركات البحث مرتبطة بالبورنوغرافيا. وهناك تقدير يقول إن 12 في المائة من الشبكة، ما يقارب 4.2 مليون موقع مصنفة ضمن X. لقد جعلت الرقمية من البورنوغرافيا لعبة تسلية محفزة. ويتحدث النفساني جاك الان ميلر[1] عن "هيجان التزاوج"[2]. فهذا الاستهلاك الكبير يجعل 59 في المائة من المبحرين يقضون بين 4 ساعات إلى 15 ساعة أسبوعيا في المواقع الإباحية. وقد انكب باحثون ألمان من معهد ماكس بلانت على دراسة تبعات هذا الإدمان. وقد بينت دراستهم أن قضاء أكثر من 4 ساعات أسبوعيا أمام مشاهد إباحية تقود، في نظر الصورية الطبية، إلى تدهور للنشاط العصبي في المنطقة المرتبطة بسيرورة اتخاذ القرار. ويشير هؤلاء الباحثون إلى ظاهرة خاصة بالتعود شبيهة بالمخدرات القوية: يجب أن يكون هناك دائما المزيد من الصور الفجة من أجل إرضاء الدماغ. إنها عملية مربحة عند صناع الجنس الرقمي الذي تتحكم فيه أساسا

(1) L'inconscient et le corps parlant. Le réel mis a jour au XXI siècle, conférence à l'association mondiale de psychanalyse, Paris 17 avril 2014
(2) furie copulatoire

شركات أمريكية مكدسة في الساحل الغربي. يتعلق الأمر بمفارقة في بلد يدعو إلى الطهرانية. ففي سنة 2011 قام فايسبوك كما أشرنا إلى ذلك، بمصادرة حساب مدرس فرنسي لأنه نشر "أصل العالم"[1]، لوحة غوستاف كوربي، فقد اعتُبرت خادشة للحياء. وسيكون الاستثناء هو ميند غيك Mind Geek[2]، بـ400 مليون دولار كرقم معاملات. فهذه الشركة المحتشمة التي يوجد مقرها في اللوكسمبورغ يمتلكها اليوم كندیان. فكل يوم هناك ما يقارب 95 مليون مبحرا يتصلون بمنصتيها المشهورتين، يوبورن youporn أو يوهوب youhub. وهناك تقدير يقول إن قيمة المواقع الإباحية في الأنترنيت تصل إلى 6 مليارات دولار.

إنه استيهام جاهز يدمر المتخيل ويجتثه من جذوره الأكثر حميمية. إن الإنسان، وهو الحيوان الوحيد الذي منح الفعل الجنسي بعدا إيروسيا، يتنازل عن ابتكار كان هو أصل خصوصيته من أجل سيل من الصور المحرومة من أي معنى. فهذا السيل الدائم من الصور لا يملأ جيوب أصحاب الصناعة الرقمية للجنس فحسب، بل يمكن البيغ داتا أيضا من تصنيف الأفراد وفق ميولاتهم الجنسية. فانطلاقا فقط من الأبحاث التي أنجزت في غوغل من الممكن تحديد البروفايل الجنسي لجزء كبير من الساكنة، جماعيا وفرديا،

---

(1) يتعلق الأمر بلوحة تشكيلية لم ترسم من جسد المرأة سوى عضوها التناسلي، وقد أطلق عليها غوستاذ كوربي" أصل العالم (المترجم).

(2) MindGeek شركة للخدمات في الأنترنيت متخصصة في الأفلام الإباحية، ومقرها في لوكسومبورغ (المترجم).

وعندما نعرف ماذا يمثل الجنس في ترسانة الضغط على الأفراد، نفهم أن الإباحية في الأنترنيت توفر، فيما هو أبعد من السلوك الإجرامي، منجما من المعلومات حول ممارسات الأفراد لم يحلم بها أبدا إدغار هوفر، الرئيس الشهير للـ FBI. تمكن الإباحية أيضا من نزع فتيل ميولات التمرد، لأنها تملأ الذهن بوهم الخرق المودع فيه. ففي 1984 لجورج أورويل، توقع الأخ إحداث لجنة فرعية في قسم الروايات أُطلق عليها بورنو سيد. وكانت مهمتها إنتاج قصص إباحية موجهة للبروليتاريا ستُباع سريا فيما بعد.

إن الاستثارة الدائمة للزمن والذهن هي ما تقوم به ألعاب الفيديو. وهي سوق تُقدر بحوالي 54 مليار أورو تزداد ب 6.7 في المائة سنويا. إن ذهننا هو لاعب بطبيعته. ويعرف علماء الأعصاب أن اللعب هو أفضل جاذب للانتباه، وهذا ما يفسر شره البيغ داتا نحو هذا القطاع المربح. هذا بالإضافة إلى أنه متداخل مع الصناعة الحربية الأمريكية التي تربطها علاقات وطيدة مع عمالقة الرقمية، كما سبق أن رأينا ذلك. وقد وظف المركز الأمريكي أتلانتيك كونسيل، المتخصص في الشؤون الدولية، في ارتباط مع الجيش الأمريكي، في أكتوبر 2014 دان أنطوني مبتكر أحد الفيديوهات الأكثر مبيعا في العالم: "كول أف داتي"[(1)]. فمن أجل تحسين مُحاكيات المعركة، يراهن البنتاغون على التكنولوجيا المتطورة في ميدان لعب الفيديو. والأمر كذلك مع التحكم عن بعد في الدرون الحربية، ريبر الشهير "faucheuse" بالفرنسية (المِحش)، التي

(1) call of duty tour de service

يمكن من تحديد مراكز إطلاقها في الولايات المتحدة على بعد ألف كيلوميتر من هدفها، وقد صممها مبتكرو ألعاب المحاكاة. تمكن المعطيات من تحديد الأهداف التي يجب القضاء عليها، وهي التي تقوم البيغ داتا بتجميعها. فعلى أساس هذه المعلومات الرقمية، سيكون من الممكن، بالنسبة للجيش الأمريكي، دون حكم مسبق، أن يقرر تصفية فرد ما أينما كان على الأرض.

فباستباقها الدائم لانتظارات المستهلك، ومن خلال الإكثار من الصور البورنوغرافية، ومن خلال تسليته بالألعاب تقوم البيغ داتا بسهولة بتخدير حسه النقدي. وبالتأكيد، فإن الشعار الذي يجب وضعه على جبهة العالم الرقمي الجديد ليس: "الحرية، المساواة، الإخاء"، بل "ألعب، وأتجسس وأستهلك". وكما كتب ذلك دوستوفسكي في الإخوة كارامازف: "سيضعون حريتهم عند أقدامنا قائلين: خذونا عبيدا عندكم، ولكن أطعمونا".

الحكمة 2. 0

"التراجيديا وحدها يمكن أن تخلصنا من البوذية" فريديريك نيتشه

ينظم الموظف رقم 107 كل شهرين في مونتيني فيي في كاليفورنيا، مقر غوغل، غذاء تأمليا. يدعو نظراءه في العمل إلى الأكل بصمت على وقع أجراس الصلاة. ويشار في بطاقة السيد شاد مينغ تان إلى أنه "رجل ظريف". ينحدر هذا الأربعيني من سنغفورة وهو السيد سعادة في غوغل الذي يعلم الموظفين الآخرين كيفية التعامل مع الضغط النفسي، ويساعدهم على الحصول على "حالة ذهنية ممتازة". ويطبق شاد-مينغ تان "قاعدة 3ب": اللباقة والطمأنينة والسعادة[1]. يتعلق الأمر بنسخة من البوذية ممزوجة بعلوم الأعصاب. فالدروس التي يقدمها هذا المبرمج القديم في جامعات غوغل تسمى search in yourself التي تعني في الجوهر: "ابحثوا عن الحل في أنفسكم"، وهو عنوان كتابه. فبفضل الموظف 107 تبدأ الاجتماعات في مونتين فيو بدقيقة صمت. وعندما يستقبل المركز شخصية عامة، باراك أوباما أو الليدي غاغا مثلا، فإنه

---

(1) règle des trois b القاعدة التي يتحدث عنها النص الفرنسي لا يمكن نقلها إلى العربية فالباءات الثلاث التي يتحدث عنها تعود إلى: bienveillance, bien être, bonheur فقد حافظنا على الصيغة احتراما للأصل فقط (المترجم).

يحترم طقوس المقابلة التي تدوم بضع دقائق تليها حصة صور مع "الرجل الظريف". وبالإضافة إلى أنه مصدر للسعادة وزين[1] وصديق لغوغل، فإن مهمة شاد-مينغ تان الذي كان من المرشحين لجائزة نوبل للسلام سنة 2015، هي التقليص من الفاتورة السنوية التي تبلغ 60 مليون دولار التي يكلفها عمال عملاق النيت الذين يوجدون تحت ضغط قد يؤدي إلى الانفجار النفسي. ففي مواجهة وباء URN-OUT[2] الذي يضرب الاتصال الفائق، اخترعت البيغ داتا دينا جديدا: "الحكمة 2. 0"[3]. ففي سبتمبر 2014، كان مخترع هذا المفهوم هو الأمريكي سوران غوردهامر، موجودا في مقر غوغل أوروبا في دبي لكي يلقي محاضرة "الحكمة 2. 0" بحضور رهبان بوذيين حول موضوع: "كيف نعيش متصلين بيننا بفضل التكنولوجيا، بطريقة تكون مربحة لراحتنا". وكان الأمر يتعلق، كما يشرح ذلك، بجواب عن "التحدي الكبير لمرحلتنا".

تهدف هذه الحكمة 2. 0، انطلاقا من مبدأ أن الفرد الذي له مردودية هو الفرد المتصل، إلى تحديد عدد الذين ليسوا متصلين بالمصفوفة، وهم ضحايا البقة السيكولوجية. ويراهن غوغل وأمثاله، بالإضافة إلى الربح الضريبي، على الربح العاطفي. فالموظفون المرضى بالقلق نتيجة الاتصال الفائق يُحَفزون على تحميل برامج في حواسيبهم

---

(1) zen ينتمي إلى طائفة بوذية في اليابان، وتعني بالإضتفة إلى ذلك "التأمل الصامت" (المترجم)

(2) BURN-OUT الإنهاك المهني (المترجم)

(3) wisdom 2.0

أو سمارتفون خاصة بالتأمل أو تعلم التنفس، كما هو الحال مع جهاز سبير spire الذي سوقته شركة في ملكية وادي السيليكون. فبفضل علبة تُربط إلى الحزام، يُخبَر الأجير عندما يصل إلى درجة قصوى من القلق بتحذير يشير في محموله إلى: "حذار أنت قلق منذ 45 دقيقة"، ويدعوه إلى مراقبة تنفسه. فعندما يتضح للاقطات أن ضربات القلب وحركات الضلع عادت إلى طبيعتها، تظهر رسالة ثانية: "أنت هادئ من جديد". ويتأسف روجي-بول دروات قائلا: "إنه ابتكار كبير في العشرية الأخيرة سيجعل من الحياة في المؤسسة شيئا هاما لدرجة أننا سنكون - وقد نكون في هذه الحالة فقط - قد أصبحنا سعداء ومتحررين ومبتكرين وزين وغير متوترين وفعالين الخ. نحن هنا أمام استبداد: لن يكون هناك خارج، ولن يكون هناك فضاء حر، لا وجود لبرانية. ففي كل مكان، وفي كل لحظة سيتكفلون بالفرد ويحثونه على السعادة، أي على الصحة، "الشكل" والطمأنينة" [1].

لم يعد دماغنا المتصل باستمرار والمفعم بدفق من المثيرات البصرية، قادرا على الاستيعاب. ففي هذا الكون الرقمي الذي هو كون الآنية والتراكب وتشظي المهام، وتُصاب فيه الأعصاب بالإنهاك[2]، نكون قد دخلنا مع الأنترنيت عصر المهام المتعددة، فقد تعددت الاهتمامات، ولم نعد اليوم مكيفين فسيولوجيا مع ذلك، وهذا قد يُحدث عندنا تشظيا في التفكير. وقد تيقن اليوم علماء الأعصاب من ذلك، فالقيام بأكثر من ثلاث عمليات متزامنة، يؤدي إلى

---

(1) la philosophie ne fait pas le bonheur, op cit

(2) les synapses العلاقة بين النورونات في الدماغ

إصابة الذهن بالإنهاك، وينجم عن هذا مراكمة الأخطاء. بل اكتشف باحثون بريطانيون تغيرا للبنية الدماغية عند الأشخاص الذين يستعملون بشكل مكثف ومتزامن أجهزة كهربائية. ووجدوا أيضا نقصا هاما في المادة الرمادية في المنطقة التي تعالج الانفعالات. إنه تأثير قد يكون، حسب العلماء، مرتبطا بعطب انفعالي من قبيل الانهيار العصبي وأشكال أخرى من القلق. فكما أن التغذية السيئة تؤدي إلى حمولة زائدة، فإن "الاتصال السيء" يحدث حمولة معرفية زائدة. إن البيغ داتا، وهي تبيع تطبيقات الحكمة 2. 0، تجد نفسها في وضع مؤسسة صيدلانية، فهي من جهة تسوق مضادات لمرض السكري، ومن جهة ثانية، تصنع، من خلال فروعها، السكر الموجه إلى الصناعة الغذائية.

سيقودنا التنافس مع الآلة إلى التسابق على الفعالية، وهي معركة خاسرة منذ البداية. فبقدر ما تحسن الحواسيب سرعة حسابها بقدر ما تسرِّع من إيقاع العمل. فكل مهمة يجب أن تكون مستعجلة، ولكل شيء الأولوية، والتوجيه هو التنفيذ المباشر. لقد تحول العمال إلى رياضيين محكوم عليهم بالسرعة المتواصلة. "فعوض التنوع في الإيقاع، والتتابع في الزمن بين لحظات قوية وأخرى ضعيفة، فإن الضغط الدائم بدفق متوتر "24 ساعة على 24" و"7 أيام على 7 أيام" اجتاح شيئا فشيئا كل استعمالات الزمن وكل الاستعمالات أيضا"، كما يلاحظ ذلك السوسيولوجي بول فيريليو. سترتسم معالم عالم تكون فيه "الحركة هي كل شيء والغاية بدون قيمة"[1]. عالم

---

(1) Monique Atlan et Roger Pol-Droit, Human, op cit

مفرغ من معناه ولا يتطلب سوى أن يملأ بحكمة 2.0.

ففي مواجهة آلة تشتغل كنموذج متقن، لن يكون هناك تسامح مع الخطأ الإنساني، علينا أن نكون بلا أخطاء. فالقول بـ "صفر خطأ" أمر مناف للطبيعة ذاتها. فكما بينت ذلك علوم الأعصاب، فإن الخطأ عند الإنسان هو جزء من التعلم، إنه خصب. إن القلق الذي ولده هذا التنافس غير المعلن عنه مع الآلة مضر، وسيُصبح زمن الاتصال عندنا ممتدا إلى ما لانهاية. يتلقى الأمريكي كل يوم ما معدله 12 ساعة من المعلومات الإلكترونية. أما الحدود بين المنزل والعمل فقد تفتت إلى درجة أن 60 في المائة من الأطر يعترفون أنهم يواصلون العمل في حواسيبهم عندما يعودون إلى منازلهم. وقد أدى تمدد مدة الاتصال، وهو أمر مربح بالنسبة للبيغ داتا، إلى تزايد ساعات العمل، أي الإنتاجية. وهناك من يقدر أن الإطار يبعث يوميا حوالي 30 إيمايلا، ويستقبل 70 آخر. ولكي لا يوقف جبل الإيمايلات هذا، سيكون رد الفعل عنده هو عدم التوقف عن الاتصال، بما في ذلك أيام العطلة. لقد أدمنا آلات العمل، فبدأنا نحس بذنب الانفصال عنها. يجب أن نكون في متناول الآخرين في كل لحظة، حتى وإن أدى بنا ذلك إلى الانفجار كبالون. يتعلق الأمر بخطر بحيث إن هذا الدفق من المعلومات الذي لا يتوقف والذي تغذيه باستمرار آلات لا تنام، يُضر بإيقاعنا البيولوجي. واقترح برينو ميتينغ نائب المدير العام لأورانج في سبتمبر 2015 "الحق في عدم الاتصال المهني"، كما ورد ذلك في تقريره حول آثار الرقمية على العلاقات في العمل.

لقد مزجت البيغ داتا في زمن واحد زمن العمل والراحة والتسلية، وهي أزمنة كانت في السابق متميزة عن بعضها بعضا، فدماغنا يشتغل بطريقة يتخللها التناوب متأثرا في ذلك بدوران الأرض حول نفسها في 24 ساعة. إن تعاقب الليل والنهار مدرج بشكل عميق في برنامجنا البيولوجي. فمن خلال مضاعفة الاختيارات في الممكنات، كما لو أنها نوافذ مفتوحة على شاشة حاسوب، فإن الآلات الجديدة تولد، كما يؤكد ذلك الفيلسوف هارتموت روزا، "كبتا، ويتمثل هذا الكبت في ألا ننجح في القيام بما نريد، وفي عدم الرضا في أننا نقوم بما نريد بشكل سيء. وتزداد قدراتنا الكامنة، الاختيارات التي بين أيدينا، دون توقف، في حين أن قدراتنا الحقيقية في تناقص مستمر"[1]. إن محاولة اتباع الخط المنحني السريع والدائم لعدد الأفعال القابلة للإنجاز في وحدات زمنية هو تسابق حثيث إلى الهاوية.

إن الأسوأ كبير جدا لدرجة أن الرقمية تقذف بنا إلى بئر من الوحدة، والحال أن الشبكات الاجتماعية تعدنا بمضاعفة أصدقائنا. ففي فايسبوك ومايسبيس حيث المعدل هو 130 و150 صديقا، فإن الكل يهفو إلى غاية واحدة هي تحسين رقمه، والسبب هو أن عدد أصدقائنا دليل على شعبيتنا. يُنظر إلى المبحر كما لو أنه عريف ينتقي جنودا وهوسه الوحيد هو أن يكون الناس تحت إمرته، ولا أهمية لشيء آخر بعد ذلك: إنه وهم الكم. نحن هنا بعيدون عن

(1) Harmut Rosa, : Accélération. Une critique sociale du temps, La découverte, 2010

الغاية المصرح بها لشعار الشبكة: "فايسبوك يمكنكم من أن تظلوا على اتصال مع الأشخاص الذين تحبونهم". هل نرى في ذلك مجرد حظ إذا صدقنا ما تقوله البيوغرافيا غير المصرح بها لكارل زاكربيرغ[1]، لقد كان الذي صمم فايسبوك يشكو من العزلة، بل كان قريبا من التوحد. لقد انفصلت عنه صديقته، وقام من أجل الانتقام، بإنشاء مدونة من الصور لطالبات جامعته في الأنترنيت، وقد صورهن ضدا على إرادتهن، وكانت الطغمة الذكورية مدعوة للتصويت على أكثرهن إثارة من الناحية الجنسية. يتعلق الأمر بلوغاريتم تم تصميمه خصيصا لهذه المناسبة لكي يقوم بالتصنيف التراتبي. فحواراتنا، وهي تتخذ شكلا افتراضيا من أجل فعالية وسرعة أكبر، أصابها الفقر وأفرغت مما يصنع غنى اللقاء مع الآخر الواقف أمامه، لحما ودما. لا يمكن أن يكون فايسبوك والشبكات الأخرى أماكن "للقاء"، كما يزعمون، بل هي أقنعة للعزلة الرقمية. فاللوغاريتمات المسؤولة عن العلاقات تضخم من الرغبة العاطفية من خلال إيهامنا أن الصداقة هي كمٌّ، وبهذه الطريقة تردعنا عن الذهاب للبحث في الحياة الحقيقية عن أصدقاء حقيقيين. إننا وقد سحرتنا الشبكة وأحطنا أنفسنا بمظاهر ضداقة، وأصبحنا ما يشبه أشباحا رقميين، وقد ننكفئ على أنفسنا أكثر فأكثر. لا حد للاتصال، ولكن لا حد للعزلة أيضا. لقد أصبح العالم فضاء مفتوحا، هذا الفضاء الذي يقدم صداقة مزيفة، لقد تم تصوره من أجل المراقبة الذاتية والمزيد من الإنتاجية حيث يحاول كل فرد حماية نفسه من الآخر. إن هذه

---

(1) Ben Mezrich : The accidentel Billionaires, Doubleday, 2009

العزلة التي أغلقت علينا فيها البيغ داتا عزلة عقيمة. إنه نسيان للذات لا يقدم لا تراجعا ولا تباعدا. إننا نضيع في نظرة الآخرين، الباحثين عن شعبية مصطنعة، عوض أن ينظروا إلى أنفسهم، وأن يجربوا الصحو. لقد تكسرت المرايا في العالم الرقمي. ولا جدوى فيه من التأمل، بالمعنى الحرفي، فهو مزعج بل قد يكون مخربا. وهذه السعادة بدون مثال ولا جهد ولا ألم... وبدون أفق هي التي يصفها نيتشه في كتابه "هكذا تكلم زراديشت".

وللإحاطة بكامل مظاهر الكابوس الذي أشرنا إليه، يمكن القول إنهم، وهم يدفعون بنا إلى الاستعانة بالخارجي، يسلبون منا ذاكرتنا، ويضعونها في الآلات. وهي تجربة خطيرة حسب الفيلسوف فرانسيس وولف، ذلك أن ذاكرتنا ليست مفتاحا يُخزِّن، "إنها تُعاش بضمير المتكلم، إنها تنشط في الزمان وفي المكان، في العلاقات التي أنسجها مع الآخرين. إنها ليست في داخلي. إنها علاقة مُسيَّقة[1] مع العالم الذي أرتبط به استنادا إلى ما أعيشه في الحاضر. إن نقل ذاكرتي إلى محيط آخر، له المضمون ذاته، ولكنه، ليس لي، ليس الشيء ذاته"[2]. فمن أجل ضمان حماية قصوى لمعطياتنا، يحثوننا على إفراغ كل ما تحتويه سمارتفون عندنا والحواسيب واللوحات، ووضعها في السحاب، فضاءات للتخزين موجودة في مكان ما في الشبكة. يمكن للمرء، أثناء الاتصال، بنقرة واحدة، الوصول إلى فضاء آبل (أيكود) أي إلى ذاكرته الرقمية المودعة في

---

(1) مُسيَّقة contextualisé أي توجد ضمن سياق (المترجم)

(2) «Notre mémoire n'est pas une clé USB» Philosophie magazine, octobre 2014

خادوم. فالمعلومات العائلية والعاطفية والمالية أو الطبية أو أحيانا الأكثر حميمية، توضع بين أيدي آخرين، دون أن تكون هناك أي ضمانة واقعية حول استعمالاتها. فهل يحاول غوردين بيل، وهو مهندس عند ميكروسوفت، جعل البيغ داتا تضع يدها على ذكرياتنا؟ فلهذا المهندس في المعلوميات، تكنولوجيا جديدة، فهو يشتغل بمساعدة أحد زملائه، على مشروع أسماه "توتال روكول"، وهو اسم الفيلم الشهير للاستشراف المستقبلي. فكرته هي: المضاعفة الرقمية لكل الذكريات. فطوال حياتنا، وبفضل التحديد الموضعي وكثرة اللاقطات المحيطة بنا، سيكون كل ما نقوم به مسجلا لحظيا في مكتبة شخصية يمكن العودة إليها في كل لحظة. يتعلق الأمر بـ"أخ صغير"، كما يسميه مصممه، يتذكر مكاننا. "إنه الوجه الديمقراطي لمجتمع الرقابة الشاملة"، "ذلك لأن الكذب يكاد يختفي، فإذا استعملت ذكرياتي الإلكترونية لكي ألومك على شيء ما، فإنني سأكون قد سجلت نسخة لتدخلي، ويمكن أن تستعمل بدورها ضدي"، هذا ما كتبه بحماسة غوردين بيل في كتابه توتاغل روكول[1]، والذي قدم له بيل غيتس "صديق الخمسة وعشرين سنة". لا يتعلق الأمر حقيقة بالعلم الخيالي، ذلك أن خريطة غوغل تقترح على مستعمليها مراجعة مسار تنقلاتهم على امتداد سنوات، بل يمكن وضع تنقلاتهم الافتراضية في صور بفضل رؤية غوغل. "إن كرونولوجيتكم هي وسيلة جيدة لذكرياتكم ورؤية الأماكن التي ذهبتم إليها في يوم ما أو الشهر أو السنة من جديد"، بهذا يصرح

Flammarion, 2011 (1)

محرك البحث الذي توقع أيضا ظهور وظيفة أخرى هي محو بعض التواريخ، تلك التي تكون مرتبطة بذكرى أليمة مثلا. أما ما يعود إلى المساعد الشخصي غوغل الآن، فيمكن أن يذكركم بمواعيد اليوم، بل وحتى المناسبات التي يجب الاحتفال بها، لأن له اطلاعا على أجندتكم وعلى تاريخية بحثكم في النيت.

والمفارقة هي أننا إذا وكّلنا أمر ذاكرتنا لغيرنا، يمكن أن نصبح فاقدي الذاكرة. وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فإن الكثير من الدراسات التي قام بها سيكولوجيون أمريكيون بينت أن مجرد معرفة أن معلومة ما تم الاحتفاظ بها في مكان ما، يردع الدماغ على الاحتفاظ بها، لأنه يعتبر هذا المجهود بلا قيمة. والرهان هو أن عمالقة الرقمية يقدمون لنا الذكريات الإلكترونية باعتبارها خدمة ضرورية، خاصة عند ساكنة تجنح إلى الشيخوخة وتخشى من الزهايمر. ولم لا يقترحون علينا ذات يوم محو ذكرياتنا السيئة من المصفوفة، بل إعادة نمذجتها لنصبح سعداء؟ إنها السعادة التي وعدتنا بها حكمة 2. 0، ذلك أن الغضب والصراع والتمرد في هذه الفلسفة الشبه بوذية التي تبشر بـ"موقف تأملي"، تُعتبَر كلها مواقف سيئة، بل هي معيقات أمام الطمأنينة. وهو ما فككه جاك أوليل في "الكذبة التكنولوجية"[1]: "إن الغاية الكبرى هي القول بلا وجود لأي صراع. لا صراع داخل الفرد مع نفسه، ولا صراع مع مجموعته القريبة، ولا صراع مع التعاضديات التي يشتغل معها، ولا صراع مع الوسط السياسي". إن هذا يُعد نقيض رؤية الإغريق

---

(1) Pluriel, 2012

القدامى الذين كان الصراع عندهم فرصة للكشف عن النفس واختبار الحدود، والمقاومة وامتحان الشجاعة. فالإنسان لا يستطيع بناء نفسه إلا ضمن المواجهة مع الآخرين ومع نفسه. إنها حكمة 2.0 أو كيف يمكن أن نقتل كل تمرد في المهد.

لقد كان الأمريكي روبير ماكبريد، ثلاثين سنة قبل ظهور البيغ داتا، قد تصور في كتابه "دولة الآلة"[1] "عالما يكون" كل شيء فيه مسجلا ومدروسا بدقة وبطريقة شمولية"، ويختم قائلا: "إن علامة التقدم المطلق والخبرة في هذا المستقبل، ستكون هي النعومة والليونة التي من خلالهما نقبل دورنا ونقوم بأقصى ما يقدمه".

---

(1) Chilton Book Co, 1967

عودة عوليس

"لن يتمردوا إلا عندما يكتسبون الوعي ولن يكتسبوا هذا الوعي إلا عندما يتمردون" جورج أورويل 1984

اقتحم رجال مكتب التحقيقات الفدرالي FBI في 12 سبتمبر 2012 شقة في دالاس. ولمدة ست دقائق، سُجل هذا التدخل القوي في ميكرو وكاميرا ظلا مشغلين أثناء التدخل. لقد قام رجال الشرطة بتفتيش دقيق للشقة واستولوا على كل العتاد المعلوماتي ثم اقتادوا معهم ساكنها مقيدا. ثمانية وعشرين شهرا بعد ذلك سيُحكم على الصحافي باريت براون بخمس سنــوات وثلاثــة أشهر سجنا و890000 دولار غرامة. ويوجد منذ توقفيه في سجن فدرالي في تكساس. ما هي جريمته؟ لقد قام بقرصنة شركة الأمن الخاصة، ستراتفور stratfor، من أجل الكشف عن الروابط المشبوهة بين هذه الوكالة وبين مصالح حكومية أمريكية.

فمن بين الخمسة ملايين رسالة إلكترونية التي عثر عليها الهاكر المجهولون التي سُربت إلى ويكيليكس، كانت هناك "نقاشات حول مشروع اختطافات واغتيالات". فقبل أن تُلقي عليه FBI القبض كان هذا الصحفي الاستقصائي المستقل، والذي كان يتعاون مع الغارديان وفانيتي فاير، يشتغل بمشروع لمصلحة خلية تفكير كانت مهمتها

التحري في مضمون عقود بعض الشركات الخاصة مع الحكومة الأمريكية في مجال المراقبة الرقمية. فهو من مناصري "المجهولين" (anonymous)، وكان قد ساهم في الكشف عن برنامج سري يهدف إلى الإخضاع المالي لهذه المجموعة من الهاكرس (القراصنة). وقد أُثقل الحكم عليه بمشاركته في الدخول بدون إذن إلى خواديم ستراتفور وإعاقة العدالة مع إخفاء حاسوب محمول أثناء التفتيش بتهم تهديداته المزعومة لرجال FBI الذين، حسب قوله، تحرشوا وتجسسوا على أمه لكي تتعاون معهم في البحث.

لقد جعلت البيغ داتا والجهاز الأمني من الهاكر العدو رقم 1. ويُعتبر إدوارد سنودن الذي كشف عن التجسس الكبير على الحياة الخاصة الذي تقوم به المخابرات الأمريكية، وجوليان أسانج مؤسس ويكيليكس، خائنين في نظر وطنيهما، وحكم عليهما بالمنفى. أما ما يخص برادلي مانينغ، المارينز السابق الذي سرَّب إلى أسانج 700000 ألف وثيقة دبلوماسية وعسكرية سرية، فإنه يقضي الآن ثلاثين سنة سجنا في قلعة في الميسيسبي. وقد كتب في طلب العفو الذي قدمه لباراك أوباما، وهو الطلب الذي رُفض، قائلا: "إذا رفضتم العفو عني سأقضي مدة سجني وأنا على علم أنه أحيانا يجب أن يؤدي المرء ثمنا غاليا لكي يعيش في مجتمع حر". ألم تكن مجموعة الهاكر التحررية أول من رفض النموذج السوقي للبيغ داتا القائم على المراقبة والغموض؟ لقد فعلت ذلك من خلال توفير البرمجيات "المفتوحة" ووضعتها بين يدي جميع الناس، وهي البرمجيات التي تمكن من التشارك المجاني، وبذلك وقفت في وجه

النموذج التجاري للبرماج[1] الذي يوجد في "ملكية" ميكروسوفت وآبل ونظرائهما، بل وابتكرت برمجيات جديدة لاستعمالات غير تلك المفروضة على الناس. وبعد ذلك قامت بنشر تقنيات التغلب على المفاتيح في الشبكة، ونشرت برامج تحافظ على هوية المستعمل قادرة على تضليل أنظمة الرقابة. "وقد نكون الآن فقط قد أدركنا أن الهاكرز مثلوا، بعيدا عن الصورة التي تحط من شأنهم، شكلا من البرغماتية لسلطة مضادة قادرة على أن تبث روحا في أنماط الأفعال المقبلة"، كما يؤكد ذلك الفيلسوف إيريك سادان، المتخصص في التكنولوجيات الرقمية.

ويحلو لعمالقة النيت والوكالات الاستخبارية أن يُشيْطنوا قراصنة المعلوميات، ويضعون في السلة ذاتها "الكراكيرز" crackers، وهم نوع من الهوليغانز الرقمية، و"فريكرز" phreakers أو "الكاردرز" carders الذين يحركهم الربح، ويقرصنون الخطوط الهاتفية أو المعطيات البنكية لاستعمالها أو بيعها، مع الهاكرز hackers وهم مواطنون يقدمون يد العون إلى الذين يدقون ناقوس الخطر. ففي الوقت الذي أصبحت فيه وسائل الإعلام التقليدية مراقبة وتجد صعوبة في نشر معلومات قد تشوش على الدوكسا[2]، فإن الهاكرز المحررين فهم حبات الرمل في الميثاق المبرم بين جهاز المخابرات والبيغ داتا. تحرص الآذان الكبيرة للنيت على سريتها عندما تقف

---

(1) logiciel

(2) الدوكسا doxa مجموع الآراء العامة والأحكام المسبق والبداهات المنتشرة في ثقافة ما، وهي في الجوهر تتميز بكونها بلا قيمة علمية (المترجم)

في وجه الهاكرز وتهددهم بأحكام ردعية قاسية. ألم يطالبوا في البداية بالحكم على باريت براون بـ 150 سنة سجنا؟ فبفضل هاكرز تائـب استطاعـت FBI القبض على "ناشط هاكرز" مجهولا حُكم عليه بعشر سنوات سجنا لأنه قرصن الإيمايلات الشهيرة لشركة ستراتفور.

إن الهاكرز الذين شهروا بهم وتعاملوا معهم كما كانوا قديما يتعاملون مع مزيفي النقود الذين يتحدون الدولة بتزوير العملة، ضروريون بالنسبة للمواطنين الذين يحاولون استعادة التحكم في المصفوفة. فهم بالفعل الوحيدون القادرون على فتح العلبة السوداء، وفهم ما يدور داخل الآلة، ونشر حبات الرمل، وتعليم الآخرين تقنيات الدفاع الذاتي الرقمي. وهناك الكثير من الحيل من مثل علبة الرسائل الهشة، وسائل للإبحار المجهول، أو فك الطلاسم، من أجل التمويه على الرادارات والتخفي والإفلات من الرقابة الشاملة، من خلال تطبيق استراتيجية تسمى "البصمة الخفيفة" التي اخترعها العسكريون. إنها سخرية القدر، ف تور TOR، وهو أشهر أدوات التخفي، ولد في أحضان مختبرات البحث للبحرية الأمريكية. ففي أواسط التسعينيات، كانت البحرية الأمريكية تريد التجهز بنظام يجعل اتصالاتها غير مرئية في الشبكة. وعندما توقف برنامج البحث، حلت محله "مؤسسة الحدود الإلكترونية"[1]، الجمعية الأمريكية التي تدافع عن الحريات على الأنترنيت. شيئا فشيئا أفلت تور من خالقيه وأصبح خارج السيطرة. ويستعمل الآن هذه الشبكة المجانية

(1) electronic frontier foundation

والمضادة للرقابة، والتي تعهدها بالعناية بعض المتطوعين الموهوسين بالتكنولوجيا، أكثر من مليوني مبحر. ولا يقوم تور فقط بإخفاء الاتصال من خلال التغطية على مضمونه، منطلقه ونهايته، بل يوفر، بالإضافة إلى ذلك، بابا للهروب مخفيا في الشبكة، هو ما تمثله كل الصفحات غير المسجلة في محركات البحث. وهناك من يقدر عدد الخواديم المخفية بـ 30000 ألف محركا يمكن لتور TOR أن يصل إليها. وقد نشر دافيد كاين سنة 2015 المقرر الخاص للأمم المتحدة المكلف بالنهوض بالحق في حرية الرأي والتعبير وحمايتها، تقريرا يمكن أن نقرأ فيه ما يلي: "إن التسنين والتخفي يضمنان للأشخاص والجماعات فضاء للسرية في الخط يمكنهم من ممارسة حريتهم في الرأي والتعبير، ويحميهم من كل تدخل اعتباطي أو غير شرعي وضد كل هجوم"، ويؤكد "عندما تفرض الدول رقابة غير شرعية على التقنيات من قبيل الغربلة، فإن التسنين والتخفي يمكن المواطنين من تجاوز هذه العوائق والوصول إلى المعلومة دون تدخل السلطات". وطالب دافيد كاين الحكومات بـ "حماية الوصول إلى هذه الأدوات وإشاعتها" "وحصر التقييدات في بعض الحالات فقط واستنادا إلى معايير الشرعية والضرورة والنسبية وشرعية الغاية المنشودة، وإخضاع كل تحديد خاص لقرار القضاء وحماية الأمن والحياة الخاصة في النيت عبر التربية العامة"(1).

إنها جهة نظر لا تتفق معها بطبيعة الحال الوكالات الاستخباراتية التي تتوق إلى معرفة مستعملي الأنترنيت المخفيين. ومن أجل

---

(1) «Rapport sur la promotion et protection du droit à la liberté d'opinion et d'expression » ONU 1é fevrier 2015

استعادة المبادرة حاولت وزارة الدفاع الأمريكية تطوير أداة قادرة على البحث في ديب ويب Deep web. فميميكس Memex الذي يكون قد كلف ما بين 10 و20 مليون دولار استطاع اقتفاء آثار الاتصال، أو الوصول إلى صفحات خفية، وإقامة علاقة بين الروابط فيما بينها، وبعد ذلك جمع معطيات مع كل ما هو منتشر في الويب لكي يصبح مرئيا. وكما يشرح ذلك مدير التجديد في درابا Drapa: "أغلب الأشخاص الذين يستعملون الأنترنيت يفعلون ذلك لأسباب معقولة. ولكن هناك طفيليات نريد منعهم من استعمال الأنرتنيت ضدنا"[1]. إن ديب الويب عند وكالات الاستخبارات والبيغ داتا التي أطلقت عليه "دراكنر" هو البؤرة التي تنتعش فيها كل الانحرافات والبيدوفيليا والإرهابيين. هناك انحرافات صُنعت صنعا تخفي استعمالا آخر، هو في الغالب هذه الانحرافات. إن ديب ويب هو وسيلة لكل واحد منا من أجل حماية حياته الخاصة، ولكي لا تسرق منه الشركات الرقمية الكبرى معطياته الشخصية. فعندما يُبحر شخص ما في موقع، تكون هناك تسعة مواقع أخرى تجارية تراقبه وتستولي، ضدا على إرادته، على معلومات تخصه، بفضل برمجيات جاسوسة. ويُمكن الويب الخفي أو الويب العميق أيضا مناضلي حقوق الإنسان والمحذرين والمنشقين والصحفيين من الإفلات من الرقابة، والإفلات من المراقبة الشاملة التي تمارسها المصفوفة. إنه الصيغة الرقمية للمغارات التي كان يلجأ إليها المسيحيون الأوائل الذين

(1) «Un moteur de recherche pour explorer la face cachée du web » Le Figaro, 12 avril 2015

كانت الإمبراطورية الرومانية تضطهدهم. "أعتبر أنه من الضروري أن يكون هناك في الديمقراطية فضاء لممارسة الغش. فلو لم نكن قد استطعنا صناعة هويات مزيفة أثناء الحرب، لكان عشرات الآلاف من النساء والرجال قد أوقفوا ونُكل بهم، وربما ماتوا"، كما يقول رايمون فورني. ويقول أب "قانون المعلوميات والحريات" الذي كان نائبا CNIL للكنيل[1] ورئيسا للجمعية الوطنية، إنه "كان دائما مناصرا للحفاظ على حد أدنى من الفضاء، بدونه لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية حقيقية"[2].

كيف نجعل من المواطن مركز الثقل من جديد؟ نفعل ذلك من خلال التحرر من هيمنة 0 و1، من هذا الزمن المتسارع، المضغوط إلى درجة أنه أصبح لحظة حاضرة، هذه "الحضورية" التي تسمرنا في أماكننا وتلصقنا بالجدران، كما تفعل ذلك القوة النابذة. نفعل ذلك كما فعل عوليس في نهاية رحلته لكي يستعيد هويته. فعندما عاد إلى إيتاكيا، جزيرة مسقط رأسه، ووضع حدا لرحلته، استعاد البطل الإغريقي اسمه. إن هذا الزمن المتوقف هو وحده الذي يمكننا من معرفة من نحن، وأن نعيد بناء أنفسنا، وهذا مصدر الضرورة الحيوية في امتلاك القدرة على قطع الاتصال. ومثل عوليس نتحرر من ديكتاتورية ناعمة ولدتها الأم الكبرى. يجب أن

(1) CNIl Commission nationale de l'informatique et des libertés.
اللجنة الوطنية للمعلوميات والحريات (المترجم)

(2) Martin Untersinger, Anonymat sur internet, protéger sa vie privée , Etrolles, 2014

نحتفي بالنقصان في حياتنا وبغموض ما سيأتي في عالم محسوب وممعير. إن المقاومة هي أيضا العودة إلى النصوص الإغريقية، تلك الأسس التي نشرت قيما كونية تعتبرها البيغ داتا قيما عتيقة". يجب العودة إلى هذه الأعمال اليوم أكثر من أي وقت مضى. فالقوى الكامنة فيها ما تزال ضرورية لكل واحد منا. نحن في حاجة ماسة، في عالم معقد تنخره الصراعات والقلق ومشبع بالإرساليات والصور، إلى أن نمتح من هذا الخزان الكبير الذي توفره التجارب الإنسانية. والحال أنه في اللحظة التي نحن في حاجة إليها نجد أنفسنا محرومين من صحبتها"، كما يقول الفيلسوف رجي-بول دروات.

نحن في حاجة إلى الفكر الإغريقي من أجل تنمية الذهن النقدي. إنه القبول بمواجهة الذات، تلك العزلة المخربة التي تقود إلى الصحو وتمنح الشجاعة في الإفلات من الكهف الرقمي حيث يُحافظ علينا مقيدين بالأوهام. وقد استطاع عوليس أيضا، وهو مشدود إلى سارية باخرته، مقاومة غناء حوريات البحر. يجب أن يمنح المرء معنى لحياته عبر التساؤل المزلزل لـ "لماذا" والوقوف في وجه المنطق الاستعمالي "والانعزالي" الذي فرضته الآلات. وذلك شريطة ألا نتخلى للمصفوفة عن جزء من ذاكرتنا وهي أساس شخصيتنا. وليس من باب المصادفة بالتأكيد أن تكون الإلياذة والأوديسة قد كُتبتا شعرا. فهذه النصوص المؤسسة والضرورية في تكوين المواطن يمكن أن تُغنَّى، وذاك يُمكن من استيعاب الذاكرة لها بشكل أفضل وتنطبع في رؤوس كل الناس. فاكتساب رؤية نقدية للعالم، معناه أيضا الاعتناء بالاختلاف، وهي طريقة في مقاومة

الامتثالية السائرة في الانتشار. فالشركات الكبرى التي دعمتها العولمة تُمعير بسرعة شديدة المنتجات وأنماط الحياة، بل مَعيرة طريقة التفكير ذاتها. فالمعلومة التي تبدو في الظاهر منتشرة في كل مكان وتتسرب إلى كل شيء عبر القنوات الرقمية، تُستنسخ في واقع الأمر إلى ما لانهاية ومقيدة ومراقبة.

يجب إعادة توجيه المصفوفة من أجل إعادة الإنسان إلى مكانه ضمن الدائرة وإعادة خلق مجتمع ديمقراطي على المستوى الإنساني حيث يستعيد الناس سلطتهم على الحاسوب. هو ذا التحدي الذي يجب أن نقوم به. فهنا وهناك في الويب شبكات اجتماعية للقرب، إنها مجموعات بشرية صغيرة مستقلة تجمع بين سكان عمارة أو حي، أو مجموعة من المنازل. علينا أن نؤسس ساحات عامة جديدة يكون النقاش فيها حرا، ونهيء فضاءات عفوية للتضامن لا مكان فيها لمنطق انغلاق الفرد على نفسه، العزيزة على البيغ داتا. وبهذا نبعث الروح في الحاضرة الإغريقية. وكما كتب ذلك سينيك Scéneque[1] في "طمأنينة الروح": "لن يصل الأمر أبدا إلى غلق كل الأبواب أمام عمل فاضل".

قناة أفيون المثقفين على تلغرام:
t.me/afyoune

(1) Scéneque فيلسوف قديم ولد في إسبانيا في القرن الأول قبل الميلاد، وينتمي إلى المدرسة الرواقية (المترجم).

الأسوأ آت لا ريب فيه

لقد انطلقت الثورة الرقمية. وهي ليست سوى في بدايتها ضمن الفضاء والزمان الذي تنتشر فيه، وبالإمكان التعرف إلى أين تقودنا، إنها تسير بنا إلى عالم حيث يكون الإنسان مفصولا عن نفسه وينتهي بأن يكون كائنا قابلا للمراقبة المطلقة، بدون إكراه وبدون عنف جسدي. والحقيقة الوحيدة ضمن هذا التطور الهائل هي حدود التبادل. شفافية وأمن وعمر طويل في مقابل الشفافية المطلقة واختفاء الحياة الخاصة والروح النقدية. إن الذهن البدائي بكل تجاوزاته التي حاولت قرون من التحضر محاربته دون جدوى سينتهي أخيرا، ومعه سينتهي اللاأمن والقلق الذي رافقه إلى حد الآن. يقدم عالم البيغ داتا نفسه بأنه عالم غير مقلق وغير عنيف، إنه يرفض الخوف من الغد. وقد بلور أدوات للوصول إلى ذلك. ومع ذلك، هناك تناقض صارخ، فهذه التغيرات فرضت من خلال أحد المظاهر الأساسية لمنطقنا البدائي المؤنسن: الشره. شهية لا حدود لها لقلة قليلة، وهم أفراد تحركهم روح إمبريالية لم تفكر فيها أي دولة من قبل إلى هذه الدرجة.

"الآخر"، أخونا وشبيهنا، هو الآن في أحسن الحالات مزعج، وفي أسوئها يُمثل تهديدا. تريد الأم الكبرى اليوم تخليصنا من شكل جديد من العنف يستحيل التعامل معه من خلال المعارك

التقليدية: الإرهاب. لم يكن العالم ينعم بهذا الأمن كما ينعم به الآن. ولم يكن الإحساس باللاأمن بهذه القوة كما هو الآن أيضا. فبفضل الأنترنيت خاصة، وهو صنبور رائع للمعلومات المتواصلة، خلقت دراماتورجيا عالمية، ما يشبه تخييل/واقع هو ما يبرر التحالف بين البيغ داتا وعالم الاستخبارات من أجل وضع الإنسانية تحت رقابة غير مسبوقة. إن الأسوأ ليس دائما قدرا لا راد له. إن سيرورة مراقبة الأفراد لا راد لقضائها، فلا وجود لأي نص تشريعي أو تنظيمي يمكن أن يقف في وجهه. فما ستتنازل عنه البيغ داتا وحلفاؤها في الظاهر ستتم استعادته بمساعدة تكنولوجيا لا يستطيع المشرعون مسايرتها، فقد تجاوزتهم تطوراتها وتعقيداتها المذهلة التي هي الآن في منأى عن منتخبين غير مؤهلين لفهم الرهانات الحقيقية والمبثوثة ضمن زمن سياسي يتميز بالبطء. فها هي السلطة العابرة للدول التي أعلن عنها مرارا كتاب العلم الخيالي تستقر دون ضجيج، وبمرونة حضارية حيث لن تكون المجانية هي الاستثناء بل هي القاعدة، وحيث سيكون العمل مخصصا لنخبة تتلقى أجورا خيالية، وحيث سيعيش أغلبية السكان الذين استبعدتهم الروبوهات في فراغ يغطي عليه مدخول هزيل مقابل اتصالهم الدائم. إن هذه الفردية دون حرية هي مهد حضارة الملل وفقدان الصبر، فكلاهما يقود إلى فقدان الإدراك الواقعي.

إن الله ذاته ليس في منأى عن أسياد البيغ داتا، هؤلاء الطهرانيون الذين لا يشبعون، فهو هدفهم المقبل. فإطالة العمر، وهي من أولويات غوغل، ستكون من حق الأثرياء فقط، هم ذاتهم

الذين سيعيشون في أماكن محصنة بيئيا، بعيدا عن التجمعات الحضرية حيث يتكدس الناس العاديون، سيكونون وحدهم ولكن في أمان بفضل تكنولوجيات الحماية من الجرائم. ومن المحتمل ألا يكون الإنسان المزيد، المعدل كما يشار إليه اليوم، سوى مرحلة نحو التحول الكبير الذي يتراءى في الأفق. فإذا كانت "الحياة الخاصة شذوذا" بتعبير أب الأنترنيت فينتون سيرف، فسيأتي يوم ستكون فيه الحياة العضوية أيضا حالة شاذة. إن حلم البيغ داتا بمزج الإنسان مع الآلة هو في طريق التحقق. فلم لا يقترحون علينا ذات يوم، التحول، بفضل تطور الذكاء الاصطناعي، إلى غطاء غير عضوي متقن ودائم. مع الأمل أن تمكنهم الملايير من المعطيات التي جمعوها عنا طوال حياتنا، للقيام به دون أن نفقد هويتنا. سنكون حينها خالدين ومتحكما فينا، لكي لا نقول مستعبدين. إن كبرياء أسياد الرقمية لا حدود له، كما هو نشاطهم وقوتهم المالية. فلم يحدث في تاريخ البشرية أن قامت قلة قليلة بفرض قانونها على هذا العدد الكبير من الأفراد. ويبدو أنه مستقبل لا راد له، فليست هناك سلطة مضادة تقف في وجهه. لن تكون القضية في أوروبا العجوز التي كانت مهد الديمقراطية، هي أن نكون ضد البيغ داتا، بل كيف الإمساك بها. والحال أن غوغل لا يمكن أبدا اللحاق به، ولا اللحاق بآبل أو أمازون. فالمعطيات التي راكموها تضعهم في منأى عن أي مراقبة أو منافسة. ففي مواجهة هذا الكيان الجديد، وهو تجسيد للقوة المتحولة للولايات المتحدة التي ولدت من تناسل بين الآلة الاستخباراتية وبين المجموعات الرقمية، تتحرك

أوروبا، ولكنها رضخت وبايعت بدون شروط. وغدا ستبتلع الشبكة كينونتنا كلها: الصحة والتأمين والضرائب والحسابات البنكية... وكما كتب ذلك الفيلسوف والتر بينجامين: "أن تواصل الأشياء سيرها، فتلك هي الكارثة". بالتأكيد الأسوأ ليس مؤكدا، ولكن هناك شيء مؤكد: ستزداد صعوبة المقاومة. ستتجسد في قبول حالة من التهميش. هناك ريبة تجاه العالم المتصل، وخروج من الزمن المتصل.

لم ينتبه المثقفون الذي كانوا يناضلون ضد إيديولوجيات واضحة المعالم، إلى ما كان يخبأ لهم، هم المدعون إلى لعب دور الحارس، لأنهم كانوا منغمسين في هذه الثورة التكنولوجية أكثر مما كانوا منبهرين بها. تتميز البيغ داتا بكونها جزءا من ليبرالية متوحشة، ليبرالية بلا حدود وبدون دولة، إنها تُقصي كل الإيديولوجيات التي تتحدث عن السيادة. وسيكون منطلق المقاومة هو إعادة الإنسان إلى مركز الاهتمام. يتعلق الأمر بحماية الحساسية، والحدس والذكاء الفوضوي، فذاك هو شرط البقاء. وبهذا الشرط يمكننا الحفاظ على جزء من إنسانيتنا في عالم 0 و 1. ودون ذلك سنعيش عراة إلى الأبد، سنعيش بذلك الإحساس المزيف للتحرر الذي يحدثه العري. إن الامتيازات التي يقترحها الأسياد الجدد للعالم هي جذابة جدا، وفقدان الحرية الذي يبدو طاغيا لا يمكن للفرد الحديث الوقوف في وجهها، هذا إذا كانت لديه الوسائل للقيام بذلك. لا يجب أن نعول على البيغ داتا لكي تعيد لنا هذه الحرية. وبالمقابل يمكننا الثقة فيها لكي نقنع البشرية أن هذه البيغ داتا ليست أساسية.





مارك دوغان - كريستوف لابي

الإنسان العاري

الدكتاتورية الخفية للرقمية

لا تكتفي الثورة الرقمية بالتحكم في نمط حياتنا وتوجيهها إلى ضخ المزيد من المعلومات والمزيد من السرعة في الاتصال، إنها بالإضافة إلى ذلك، تقودنا إلى حالة من الامتثالية والعبودية الإرادية و«الشفافية»، ستكون نتيجتها النهائية هي القضاء على الحياة الخاصة. حينها سيتنازل الناس طوعا عن حريتهم. ففيما وراء الوعود الطيبة وحالات الانجذاب التي لا تُرد قامت الثورة الرقمية بإطلاق العنان لسيرورة يتعرى فيها الفرد لصالح حفنة من الشركات المتعددة الجنسيات، وهي أمريكية في أغلبها. ما يُصنف ضمن المدونة الكبرى للمعطيات Big data. فغاية هذه الشركات هي إحداث تحول جذري في المجتمع الذي نعيش فيه لتجعل منا كائنات مطواعة.


ISBN: 978-9954-705-65-0





الدار البيضاء / بيروت
الدار البيضاء: 212522810406+ / بيروت: 9611747422+
markazkitab@gmail.com